

محمود رفعت

في صُحبَةِ الشنفرَى

المتوفى نحو 70 ق.هـ - 554 م

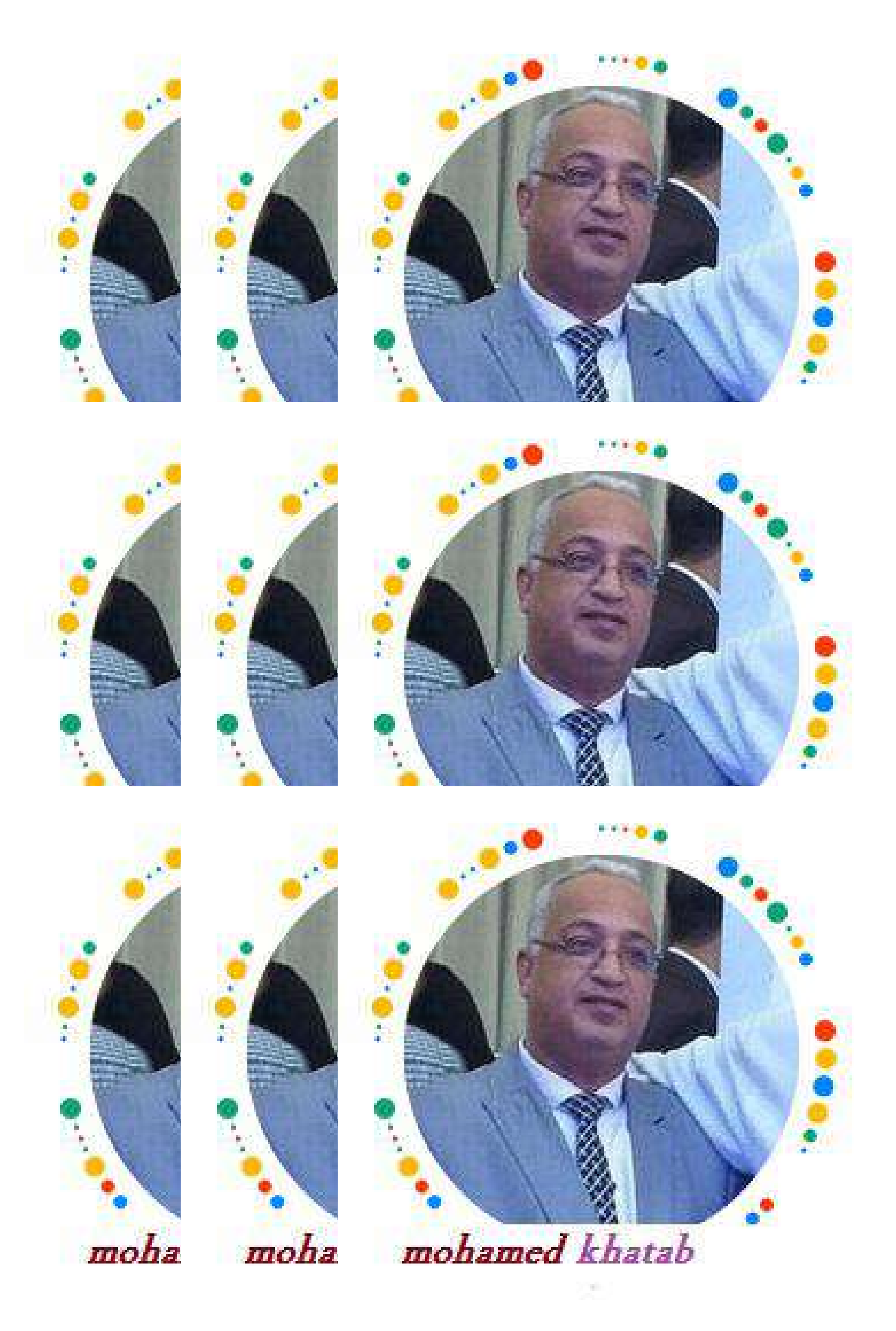
معه في لامية العرب وتائيته وقطعةٍ نونيّةٍ له



فِي صُحْبَةِ الشَّنْفَرَى نَسِيتُ مَكْـــرَ الْوَرَى
وَعِشْتُ مُسْتَنْفَرًا بِغَـــزْلِ مَا قَــدْ فَــرَى
فَلْتَطَّـــرِحْ جَانِبًــا مَا قِيــلَ حَتَّى تَــرَى

تقديــم أ.د.محمــد جمــال صــقر




moha
moha
mohamed khatab



اسم الكتـــــاب: في صُحْبَةِ الشَّنْفَرى
المـــؤلــــــف: محمود رفعت
موضوع الكتاب: أدب (شعر)
عدد الصفحات: 176 صفحة
عدد المـــلازم: 11 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 21469 / 2020
الترقيم الدولي: 8 - 837 - 278 - 977 - 978 ISBN:

التوزيع والنشر:



القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com



فِي صُحْبَةِ الشَّنْفَرَى

(المتوفّى نحو 70 ق.هـ - 554م)

(معه في لاميَّةِ الْعَرَبِ
وَتائِيَّتِهِ وَقِطْعَةٍ نُونِيَّةٍ لَهُ)

فِي صُحْبَةِ الشَّنْفَرى نَسيتُ مَكْرَ الْوَرى
وَعِشْتُ مُسْتَنْفَرًا بِغَزْلِ ما قَدْ فَرى
فَلْتَطَّرِحْ جانِبًا ما قيلَ حَتّى تَرى

محمود رفعت

تقديم: أ.د/ محمد جمال صقر



إِهْـــداءٌ

إِلى الشَّنْفَرى،

لَو اسْتَطَعْتُ يا سَيْدي أَهْدَيْتُكَ حَياتيَ الّتي غَيَّرْتَها، وَنَفْسيَ الّتي ثَقَّفْتَها، وَرُوحيَ الّتي رَفَعْتَها، غَيْرَ أَنّي لا أَسْتَطيعُ، وَفي كِتابِكَ هٰذا بَعْضُ ذٰلِكَ كُلِّهِ، فَاقْبَلْهُ لَعَلَّكَ تَجِدُ فيهِ بَعْضَ حَقِّكَ الْمَهْضومِ وَدَمِكَ الْمَهْدورِ.



وَالسَّلامُ وَالرَّحْمَةُ!

هــذا الـكـتـاب

فِي صُحْبَةِ الشَّنْفَرَى نَسِيتُ مَكْرَ الْوَرَى
وَعِشْتُ مُسْتَنْفَرًا بِغَزْلِ مَا قَدْ فَرَى
فَلْتَطَّرِحْ جَانِبًا مَا قِيلَ حَتَّى تَرَى

محمد جمال صقر

ما الذي يجعل شابا من هذا القرن الهجري الخامس عشر الموافق القرن الميلادي الحادي والعشرين، يلتفت عن دواعي الحداثة التي تشغل أقرانه الآن بتِقانتها ورَفاهتها، إلى دواعي قدامةٍ تجذبه ستة عشر قرنا بما يكاد لا يراه غيره، إلا أن يكون قد رُزق من الحكمة ما علَّقه بما قضى التاريخ بأنه زمان الطراءة والجراءة والشفوف والنفوذ والفصاحة والبلاغة، الذي لم يشغل العربيَّ فيه عن الإنصات إلى نفسه صخبٌ ولا كذبٌ!

لقد أحب صاحب هذا الكتاب الشنفرى على بعد الزمان والمكان، وخلطه بنفسه حتى نسي أنه محمود وأنه الشنفرى، وبدا له أنه إنما يراجع كلامًا قاله هو نفسُه قبل ستة عشر قرنا؛ فعنده من ثَمَّ خبرُه الذي لا يعرفه غيرُه على طول استتاره ولا يجوز منه الارتياب فيه، لأنه صدَق نفسه، والصدق منجاة!

اقرأ ما شئت من شروح شعر الشنفرى، ثم انسَهُ، واقرأ هذا الكتاب؛ فلسوف تجد صاحبه يجمع لك من معاني الشنفرى ومبانيه التي فرَّقها في شعره ما لم يجتمع قبله، مثلما يجمع مركبو أجزاء الصور المقطعة أجزاءها -فإذا هي صور أشخاص يعرفونهم أو يعرفون أشباههم- ولا يدعها حتى يعلق بها معانيه ومبانيه!

علـى سبيـل الـتـقـديـم

هذا كتاب ثائر كثورة الشنفرى؛ مسَّ أطيافَهُ الأولى قديمًا طائفُ الشنفرى فاجتمعت إليه، فما زال بها إلى أن تعلقتْ به، ثم أغراها فمضت على أثره ما شاء الله لها أن تمضي، ترى وتسمع، فتذكر وتنسى، وتكتب وتمحو إلى أن استقر ما بقي لها في هذه الأوراق رزينةً مكينةً قد أخذت من أسلوب قائدها الثائر واعتداده ما يكفيها لتتجانف عن شرط أساتذتنا الأكاديميين بغير إزراء أو تقصير.

وما له لا يثور وقد سبقته عن الشنفرى كتبٌ كثيرة بمقدمات طويلة ودراسات وافية لن يضيف إليها -إن حوى مثلها- إلا ترجيحاتٍ قد أُثبتت في خلاله بالفعل!

ثمّ ما له لا يفعل وتلك الكتب بها حوت منتشرة قريبة المنال!

فهذا كتاب موجّه إلى أهل التخصص وغيرهم عسى الله أن يعطف به قلوب هذا الجيل وما بعده على تراثنا العظيم، كرهتُ أن أشغل قارئه عن غايته أو أن أستهلك جهده ووقته وصبره، إنما أريد

أن أفسح للشاعر وشعره، ولن تعرف أيها القارئ قيمة هذا الشرح ولا ما يحاوله إلا إن قارنتَه بغيره من الشروح السابقة عليه.

أسأل الله أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وصلاة وسلامًا على رسوله الأمين، والحمد لله رب العالمين!

محمود رفعت

12 جمادى الآخرة 1441 / 6 فبراير 2020 م

mrefaat87@gmail.com

www.facebook.com/mahmoudrefaat87





مَعَ الشَّنْفَرى
في لامِيَّةِ العرب[(١)]

(١) نُشِرَتْ على موقع أستاذنا الحبيب أ. د. محمد جمال صقر، أحسن الله إليه! http: //mogasaqr.com/ في السادس عشر من ديسمبر عام ٢٠١٨م.

١

يوم الرحيل

الإعلان

هٰذا الشَّنْفَرى، الكريمُ الثائرُ، الْقَويُّ الجائرُ، الشُّجاعُ الصابرُ، هٰذا هُوَ بَعْدَ أَنْ ضاقَ بِمَنْ حَوْلَهُ مِمَّنْ لا يُشاكِلُهُ طَبْعُهُ، وَلا يُشَرِّفُهُ نَسَبُهُ فَعَزَمَ عَلى الرَّحيلِ عَنْهُمْ.

لٰكِنَّ مِثْلَهُ لا يَرْحَلُ عَنْ مِثْلِهِمْ في غَفْلَةٍ كَمَنْ أَجْرَمَ، وَلا يَتَخَفى كَمَنْ يُحْزِنُهُ تَوْديعُهُم، بَلْ يُعْلِنُ ذٰلِكَ فيهِمْ جَميعًا بِالصَّوْتِ والْفِعْلِ، فَيَقُولُ:

١- أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيِّكُمْ
فَإِنّي إِلى قَوْمٍ سِواكُمْ لَأَمْيَلُ[١]

لم ينم الشنفرى هذه الليلة[٢]، لكنّه لم يرحل حتى استيقظ القومُ مِن نومهم، وقام كلٌّ منهم لحاجته، فاندفع براحِلَتِه لِيَمُرَّ من حيث يزدحمون حول رؤسائهم وكُبرائهم[٣]، لم يُحيِّهم، ولم ينتظر أنْ

(١) أَقيموا: اصرفوا وأزيلوا، المطيّة: ما يُركب من الدَّوابّ كالخيل والإبل، أَمْيَلُ: مُحِبٌّ.

(٢) سبب ذلك في البيتين الثاني والرابع عشر وشرحهما.

(٣) بناءً على تأويلنا بعض أبيات القصيدة كما سيأتي.

يُفسحوا له الطريق أو أنْ يسألوه عنْ عَزْمِهِ لأنَّه أحرَص منهم على إخبارهم، فَوَجَّهَ إليهم أَمْرًا حادًّا قاطعًا: أقيموا بني أمي صدور مطيّكم! أي: أفسحوا لي الطريق لِأَمُرَّ[١]، وفي هذا إعلانٌ وتحدٍّ.

وهم قومُهُ[٢]، لكنّه يختلف عنهمُ اختلافًا كبيرًا لذلك أَبى إلا أن يناديهم بـ (بني أمي)[٣]، كأنه يقول: إنكم وإن كنتم أهلي إلا أنّ فرق ما

---

(١) يرى قومٌ أنّه أرادَ بـ (أقيموا صدورَ مطيِّكم) ارحلوا، وهذا عجيب وخطأ بلا شكّ، ويرى غيرُهم أنّه أرادَ تنبيهَهم، ولا بأسَ بذلك، لكنَّنا نرى أنّه أرادَ: أَفْسحوا الطريق. فإنه راحل مارٌّ بمقيمين.

(٢) لا نستبعد أن يكون هؤلاء الرؤساء إخوته، أو أن يكون له فيهم إخوة أشقّاء أو إخوة أَخْياف (إخوة من أم)، وفي القصيدة ما يُساعد على هذا الظن، لكنه لا يعطينا من القوة واليقين ما نواجه به سطوة الروايات المختلفة عن الشنفرى وحياته، وسنشير إلى ما يساعد على ذلك بإذن الله في مواضعه.

(٣) ظنّ بعض مَن تعرّض لهذه القصيدة أنه يُنادي قومه بـ (بني أمي) دون غيرها من الصلات لأنه إنما يعني أصحابه من الصعاليك، وهذا أيضًا عجيب وخطأ، وأعجب منه قول القائل: إنها أقرب الصلات إلى المودة. سبحان الله! وأينَ هو في هذا الموقف من المودة! لكن ربما وجَّهَهُم إلى هذا الظن ما قيل في تفسير قوله تعالى: (قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي) (الأعراف: ١٥٠)، وقوله سبحانه: (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) (طه: ٩٤)، وكان الأَوْلى بالمفسرين الاستعانة ببيت الشنفرى لتوجيه الآية إلى أنه يذكّره باختلاف طبعيهما، لأن هذه الصيغة لم تُذكر إلا في موطن الاختلاف، فظنّوا أن خوف سيدنا هارون من أخيه دفعه لاستعطافه، وما كان سيدنا موسى ليؤذيه بعدما سأله عن السبب؛ فإن مَن يطلب المعرفة يطلب الإنصاف، ويرى الشيخ الشعراوي رحمه الله أن استفهام سيدنا موسى (مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) (طه: ٩٢، ٩٣) ليس استفهامًا حقيقيًّا بل ليتيح له عرض حجته فيكون ردًّا على من اعترض عليه، وهذا أدعى لنفي الاستعطاف، لكن الشيخ الشعراوي كان فسّر قوله تعالى: (قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي) (الأعراف: ١٥٠) فذكر ما قيل عن حنان بني الأم، وزاد عليه ما يمكن أن يكون سببًا متكلّفًا، وربما كان الأَولى ما ذكرتُ، والله أعلم.

بيني وبينكم فرق ما بين السماء والأرض؛ إنني من طينة غير طينتكم، ولا يجمعني بكم إلا الوعاء الذي أُنْضِجْنا فيه فَلَمْ يُغيِّر حقائقنا وإن تغيَّرتْ فيه حينئذٍ حالتي وحالتُكم. وفي هذا تطاولٌ وتعالٍ.

وسبب رحيله أنّه يميلُ إلى قوم غيرِهم، وفي هذا هجاءٌ وازدراءٌ.

فنحن الآن مع إنسان ذي نفْس أَبِيَّةٍ مُتَوَثِّبة وعزيمة حادّة ماضية.

وهو هناك يواجه قَوْمًا خُبثاء ضُعفاء.

وهذا المطلعُ وحدَه كافٍ لتذيعَ قصيدته وتنتشر أيًّا ما كانت، لكنه لم يكتفِ به.

٢- فَقَدْ حُمَّتِ الْحاجاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ
وَشُـــدَّتْ لِطِيّاتٍ مَطايا وَأَرْحُـــلُ[(١)]

وهو حريص أيضًا على تأكيد كلامه، وقطع شكِّهم ، وتخييب أملهم سريعًا.[(٢)]

إنّ هٰذا ليس قرارًا أهوجَ، بل هو تدبير دقيق اختار له الوقت المناسب، وحدّد ما سيفعل، وما الذي يحتاج إليه، وكتم أمره، حتى إذا حانت الليلةُ المختارة، قام فاستعدّ سعيدًا جَذِلًا، فقضى حاجاته،

(١) **حُمَّ**: قُضِيَ وانْتَهى، **الطِّيَّة**: النِّيةُ المطويّة في القلب، **أَرْحُل**: جمع رَحْل، وهو ما يَجْلس عليه راكبُ الإبل.

(٢) لذلك قال: (فقد).

وجمع أشياءه، وأعد راحلته، ثم نظر فإذا كل شيء في موضعه كما أراد وأحسن، في وقته الذي قدّره أو قبله، كأنه لم يكن يعمل وحدَه، فاستبشر بالرحلة، وعلم أنها مباركة(١).

ثم جلس ينتظر استيقاظ قومه(٢)، وينظر إلى ما يستدبره وما كان فيه من آلام وخيبات تغضبه ذكراها، ثم يُسَرُّ بأنه يتركها الآن خلف ظهره حتى حجبها عنه منظر القوم يخرجون من بيوتهم ثِقالًا غافلين، يراهم، ولا يرونه، غاظه منظرهم فقام إلى راحلته، وقصد إلى حيث يزدحم الناس حول رؤسائهم ليروه، ويسمعوه، ويكاثرهم بما عنده بعدما أظهروا من الغفلة، ولكي لا يظن أحد منهم أنه يفعل هذا طلبًا لإحسان أو لرشوة تملأ حنكه قبل أن ينتشر خبره بين القبائل، بل يفعله لأنهم لم يتركوا له حلًّا آخر.

فنحن الآن مع إنسان ذي عقل وحزم وتدبير(٣).

وهو هناكَ يواجه قومًا ضائعين مُضَيَّعينَ.

---

(١) لذلك استخدم الفعلين المبنيين للمجهول: حُمّت، وشُدّت، واستخدم الجمع (حاجات، طيات، مطايا، أرحل)، ونرى أن الشنفرى لم يكن يملك في الحقيقة مطايا وأرحلًا آنئذ لما سَنُؤَوِّل به بعض أبيات القصيدة.

(٢) لأن الحاجات حمت والليل لا يزال مقمرًا.

(٣) القصيدة على ما نرى لا تخلو من فخر، لكنه لم يكن الفخر الذي قُصد إليه، بل جاء عفوًا في سياقه، وستجد أن الشنفرى لم يكن يعبأ طوال القصيدة برأي المتلقي أو بنظرته، بل كان كأنما يكتب يومياته، ويؤرخ لمرحلة من حياته تتقلب فيها الأحوال بين خيبات ونجاحات، وتتغير فيها آراؤه ونظراته، وتتحول طموحاته، وليس هذا شأن مَن يفتخر.

الأسباب

٣- وَفي الْأَرْضِ مَنْأًى لِلْكَريمِ عَنِ الْأَذى
وَفيها لِمَنْ خافَ الْقِلى مُتَعَزَّلُ[١]

ضجَّ القوم ثم سكنوا لِيُسْمَعَ كبيرُهم، لكنه لم ينطق بخير، ولا رد بعقل وإن قال ما كان متوقَّعًا، فهوّن من أمره، وقلّل من شأنه، وأراد تصغيره أمام نفسه والناس[٢].

أما هو فإنه يعرف أنه حرٌّ كريم، والقوم أيضًا يعرفون، وأما هذا الرئيس فلا معرفته تنفع، ولا جهله يضرّ؛ فلم يوجّه إليه في ردّه خطابًا، ولا صرّح بذكر نفسه والدفاع عنها، ولكنّه اختار أن يكون ردّه قولًا عامًّا، ثم حكمة تشيع من بعد يدفع بها عن كل كريم في كل زمان ومكان؛ إنّه ليس كريمًا من عامّة الكرماء، بل إنه المدافع عنهم والمتحدث باسمهم في كل وقت وكل مكان.

وهو يرى لكل من اختار أن يُكرم نفسه أن يكون شديد التحرُّز لكرمه؛ فيبتعد عن كل مكان قد يخالطه فيه أذًى، ثم إنه إن أَمِنَ

(١) **المنأى**: المكان الذي يُبْتَعَدُ إليه، **القِلى**: الكُره، **المُتَعَزَّلُ**: المكان الذي يُعْتَزَلُ فيه.

(٢) هذا رجل يواجه جماعةً بما يكرهون ذِكْرَه وهذا أدعى لاستضعافه، وهم أهله الذين يعرفونه وهذا أدعى لانحسار هيبته، لذلك لا نتوقع أنهم أنصتوا صامتين هادئين، بل ضجّوا وصخبوا، ولاموا وعذلوا، وغلب صوت على أصوات، وظهر كلام من بين كلام، فهذا البيت والذي يليه -وربما ما سبقه أيضًا- ردود الشنفرى على مَن اهتم بالردّ عليه.

الأذى ولم يَأْمَنْ أنْ يُكره فليعتزل حتّى لا يُكره الكرم بسببه.

أخذ الشنفرى بالحزم؛ فملك نفسه، ولم ينسَ أنّهم قومه[1]؛ فلم يصفْهم بسوء صريح يُعيّر به، ولا نشر زعمهم عنه في شعرٍ صادق؛ فهو رجل صاحب رؤية يسنّ للنّاس سنّة حسنة.

ثُمّ إنّهم إنْ أنكروا ما مضى فكيف ينكرون ما قيل الآن! أما وقد وقع الإيذاء، وتوقّع الكره فلا بقاء له بينهم.

فمَن ظَنّ الآن أنّ عِزَّ الفَرْدِ على الإطلاق مِنْ عِزِّ جَماعَتِهِ، وأنَّ القبيلةَ هي دائمًا الوطنُ الذي لا يَخرج عنه إلّا هالكٌ فقد أخطأ.

٤- لَعَمْرُكَ ما في الْأَرْضِ ضيقٌ على امْرِئٍ
سَـرى راغِبًا أَوْ راهِبًا وَهْـوَ يَعْقِلُ[2]

ثُمَّ تَرَفّقَ به أحدهم مُشفقًا عليه أو مدّعيًا الشفقة، حريصًا عليه أو مستدرجًا له لِيجدَ على ردّه مأخذًا: وأيُّ أرضٍ تسعكَ إنْ ضاقتْ بكَ أرضكَ! ومَن ينصرُكَ إنْ خذلتَ قومكَ!

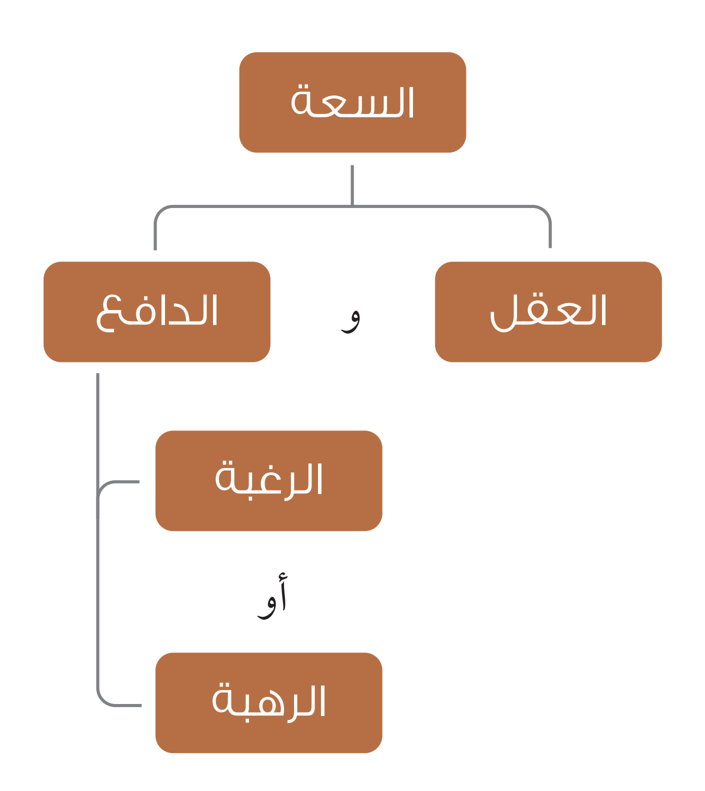
أمّا نيّته فلا يعلمها إلا الله، لكنّه أظهرَ الرفق، فرفق به الشنفرى وعظّم قدره وأقسم بحياته، بعدما أعرضَ قبل قليل عن خطاب

(١) فإن كانوا إخوته على ما ذكرنا في الهامش من قبل فسيكون هذا خلافًا عائليًّا؛ فلن يكون لذمّهم في تلك الساعة أثرٌ كبيرٌ في نفسه، ولا في نفوس من حضروا، وسيكون اجتنابه ذمّهم أَولى.

(٢) **لعمرُك**: وَحياتِك (قَسَم).

من سعى لإهانته، فأسرع إلى نفي الضيق الذي ادّعاه قبل أن يُمهّد له بأسبابه ليقطع على (المشفق) وعليهم كل أمل، ولم ينفِهِ عن نفسه فقط بل نفاه عن كلّ إنسان حاز شَرْطَيْهِ ليغلق في وجههم أيَّ باب لأيِّ مأخذ أو اتهام.

وَشَرْطاهُ ببساطة العقل والدّافع، والدافع إما رغبة أو رهبة:



هذه القاعدة تشمله فيمن تشمل، فليحتفظْ كلّ مُشفق بشفقته لنفسه.



إلى الأهل الحقيقيين

٥- وَلـي دونَكُمْ أَهْلونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ
وَأَرْقَـطُ زُهْـلـولٌ وَعَـرْفـاءُ جَـيْـأَلُ(١)

كأنّ كبيرهم ذلك قال لعاذله المشفق عليه: اتركه فلن يذهب؛ فلا أهل له غيرنا، وإن ذهب فسيعود، وإذا لم يعد فسوف يندم...!

هم حتّى الآن يظنّونه سائرًا إلى قوم آخرين يُجاور فيهم، ولا يعرفون ما عزم عليه، ولا ما يرى في نفسه من قدرة وإرادة، وقد لَزِمَهُ أنْ يُوضّح لهم ما يَستقبل، وأنْ يفتح عيونهم على حقيقة ما يَستدبر، وأنْ يعرّفهم بما يَجهلون من أمره وأمر الناس.

فإنهم لا يتصوّرون أنْ يعيش إنسان وحده بعيدًا عن الناس، فعارض تصوّرهم بتصوّر آخر له بين تلك الحيوانات، ثُمّ مضى في أبيات تالية يَبني هذا التصوّر الجديد الذي أراد له أن يحلّ مكان تصورهم القديم.

---

(١) **أهلون**: جمع أهل، **سِيد عَمَلَّس**: ذئب قوي سريع، **أرقط زهلول**: نمر أملس، **عرفاء جيأل**: ضبع طويلة العُرف. وأهل الرجل: عشيرته وذوو قرباه، وقد استخدم صيغة الجمع، وعدّد لهم هنا ثلاثة أهلين، وسوف يعدد لهم بعد قليل ثلاثة أصحاب، فربما كان يستبدل ثلاثة بثلاثة، فهذا وغيره مما يساعد على أنه كان يخاطب إخوته.

وقد اختار أَكْرَهَ الحيوانات إلى أصحاب المال الراعي[١]، وإلى البسطاء القائمين على رَعْيِهِ وحمايته، فكيفَ بمَنْ كانَ راعيًا، ثُمّ أصبح من ذوي اليسار، وهو مع هذا كان ولا يزال جبانًا[٢]! إنه يعذّبه بكلامه.

٦- هُمُ الْأَهْـلُ لا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذائِعٌ
لَدَيْهِمْ وَلا الْجاني بِما جَـرَّ يُـخْـذَلُ[٣]

وضح لهم ما يستقبل، والآن يواجههم بحقيقتهم وحقيقته المختلفتين اختلافًا كاملًا، ويكشف مضطرًّا حزينًا الخُلُقَ الذي انتشر في قومه بسبب رؤسائهم[٤] فجرّ عليهم أخلاقًا أسوأ؛ فإنهم كانوا يتتبعون أسرار الناس وعوراتهم، وجاز عندهم مَن كانت بضاعته الأسرار والأخبار، وربما كان ذلك سبب انقياد بعض مَن انقاد لهم؛ فلم تُخضعهم قوة، ولا أَسَرَهُم كرم، ولكنْ لأنهم جارَوْهم حتى صار ذلك الخلق عامًّا فيهم فلم يبقَ فضل لأحد على أحد، وسبق في ذلك الميدان الْأَلْأَمُ طَبْعًا وَالْأَحَطُّ نَفْسًا فَسادَ حتى

(١) الأنعام السائمة من إبل وغنم.
(٢) تأويل ذلك في أبيات تالية.
(٣) مستودع: محفوظ، ذائع: منتشر، جرّ: فعل.
(٤) لذلك استخدم (لديهم)؛ فإن السر لا يزال سرًّا حتى يذيعه من يعرفه لديهم، وسيعود لذكر هذه الصفة في البيت الرابع والخمسين بما يزيد طريقتهم وضوحًا.

صار أمل كل من يرى لنفسه فضلًا أن يَأمن الفضيحة وهتك الستر بحقٍّ أو بباطل، وهذا أشد الخذلان.

وليس يُظنّ بمَن غلبه ذلك الطبع، واختار ذلك العمل أن ينصر أخاه، وهذه هي الخيانة الحقيقية.

٧- وَكُــلٌّ أَبِــيٌّ بـاسِـلٌ غَـيْـرَ أَنَّـنـي
إذا عَـرَضَـتْ أُولـى الطَّرائِدِ أَبْـسَـلُ[١]

ومن حسن حظّ تلك الحيوانات أن لم تنتشر فيهم هذه الأخلاق التي ما انتشرت في قوم إلا أذلتهم وفرّقتهم وإن بَدَوْا مجتمعين متماسكين فاختفت منهم المروءة، وساد فيهم التخاذل، ولم يأمن أحد فيهم أحدًا.

أما الأهل الذين اختارهم فلن تجد فيهم هذه الصفات، بل كلهم على فطرتهم، أباة باسلون، فَهُم أَشْبَهُ به.

وأمّا هو فإنّ عقله الذي علمَ به قدره وأقدار الناس، وحسب به لكل خطوة حسابها، وجرّب الطريق قبل أن يسلكه، وعَرَفَ الرفيق قبل أن يرحل إليه، ونظر به في أموره كلها فحلّلها وقدّرها بقدرها -هذا العقل لن يعوقه عن مجاراة أهله الجدد الذين يعيشون هناك بفطرتهم دون تفكير؛ فإن ما يطرأ له لا يفجأُه، بل تراه إذا ما

(١) **عرضت**: ظهرت، **الطرائد**: الصيد، ومفردها: الطريدة، **أبسل**: أشجع.

رأيتَه مستعدًّا دائمًا، يطارد أول صيد يظهر ولو عَرَضًا، ويستبسل حتى يغلبَ تلك التي طبيعتها القنص والصيد.

٨- وَإِنْ مُدَّتِ الْأَيْدي إِلى الزّادِ لَمْ أَكُنْ
بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ[١]

الرجل واقعيّ؛ لا يدّعي الفروسيّة، ولا أنّه يعفُّ عن غنيمته، ولا أنّ كرمه يمنعه عن الطعام حتى يشبع غيره، بل يمدّ يده، وقد يعجل أيضًا قبل أن ينتهي الطعام، لكنّه لا يسبقهم إليه برغم قدرته، كأنّه يربأ بنفسه أن يتشبّه -ولو بين العجماوات- بأصحاب تلك الأخلاق التي يفرّ منها؛ فهو لا يسعى في هذا البيت لنفي صفة الجشع عن نفسه، ولا أن يُلصقها بالحيوانات، ولا هو يذكر سبب تأخّره[٢]، لا، بل إنه لكثرة ما رأى من جشع أهله، ولشدّة ما أنكره أصبح يحذر دائمًا أن يصدر عنه فعل يشبه أفعالهم الذميمة؛ فيرى في نفسه شبهًا بهم.

لم يترك الشنفرى بعد هذا البيت مجالًا للشكّ في بواعثه وشدّة كُرهه ومخالفته لهؤلاء، ولا قصّر الرجل في وصف بُعد حزمه وشدة مَضائه.

٩- وَما ذاكَ إِلّا بَسْطَةٌ عَنْ تَفَضُّلٍ
عَلَيْهِمْ وَكانَ الْأَفْضَلَ الْمُتَفَضِّلُ[٣]

---

(١) **الزاد**: الطعام، **أجشع**: أكثرهم جشعًا.

(٢) سيذكر السبب في البيت التالي.

(٣) **بسطة**: سعة، **تفضّل**: تكرُّم.

وهو إذا تأخّر عن شركائه كان نصيبهم من الزاد أكثر منه، وربما كان هو المستحق للزيادة لأنه صاحب الطعام، لكنه لا يندم على ذلك، ولا يعدّه خسارة، بل هو تفضّل منه عليهم، فكما أنه حريص على ألا يتشبه بلئام قومه فإنه حريص أيضًا على أن تكون صفاته عكس صفاتهم في كل شيء، ولولا أن الطعام والشراب حاجة أساسية لحفظ الحياة لما أكل أو شرب ترفُّعًا وتكرُّمًا، ولذلك نراه دائما زاهدا في المأكل والمشرب، لا يطلب منه إلا أقل القليل، ولا يحزن على ما يفوته منه أو يقلق إذا تأخر عنه[١].

وفي اللحظة التي لا يرى بأسًا فيها أن يبخل عن نفسه بحقه من الطعام يأبى أن يبخل عن قومه بالنصيحة، فلا يختم البيت إلا بتلك الحكمة الموجزة القديمة[٢] الخالدة التي ربما وجدت فيهم أُذُنًا مُصغية، وهي معروفة فلن ينفر منها مَن يتعالى على قائلها والمُذَكِّرِ بها.

مع الأصحاب المخلصين

١٠- وَإِنِّـي كَفاني فَقْدَ مَنْ لَيْسَ جازِيًا
بِحُسْنى وَلا فــي قُــرْبِــهِ مُـتَـعَـلَّـلُ[٣]

---

(١) سيأتي توضيح هذا كله.

(٢) لذلك قال: (وكان).

(٣) **مُتعلل**: سَلْوى وعزاء.

لم يشفع له نصحه إياهم ولين قوله وحسن تأتيه، بل زادهم غضبًا على غضبهم من تفضيله تلك الحيوانات عليهم، ثم تفضيل نفسه على تلك الحيوانات.

فلما رأى الشر في وجوههم، وعلم أن انفراده بينهم قد يغريهم به، وأن دعوته قد صرفت عنه كل ناصر كان من الممكن أن يسلّيه وجوده بينهم، ويجد في قربه متعلّلًا، وعرف أن رفقه بهم قد أطمعهم فيه -غيّر أسلوبه.

وكان قد عارض تصورهم عن العيش وحيدًا بتصوّره الجديد، والآن يعارض تصورهم عن الرحلة وحيدًا أيضًا بتصور جديد، ويحذرهم، ويخيفهم عاقبة الغدر.

فإنّ هؤلاء كانوا إلى هذه اللحظة لا يتصورون أن يسافر رجل مع أقل من صاحبين[١]، فعارض تصورهم هذا بتصور آخر له مع ثلاثة أصحاب أيضًا كثلاثة الأهلين[٢]، لكنه يُنَبِّه قومه قبل ذكر أصحابه إلى ما يرى منهم الآن من سوء الجزاء وهو لا يزال بينهم، وبعقب نصحه اللَّيِّن، وينفي في الوقت نفسه هذه الصفات السيئة عن أصحابه الذين

---

(١) انظر: ابن سيدة، شرح مشكل أبيات المتنبي، تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار الطليعة، ط١، ص ١٩٠، ١٩١.

(٢) نبّهنا إلى ما يمكن أن يُفهم مِن هذا في الهامش عند تعليقنا على البيت الخامس.

اختارهم، ويُؤكّدُ لهم[١] أنّهم إنْ حاولوا الغدر به فإنَّ أصحابه يكفونه أمرهم، ويخرجونه سالمًا من بينهم، فمَن أصحابه؟

١١- ثَـلاثَـةُ أَصْـحـابٍ فُـؤادٌ مُشَيَّعٌ
وَأَبْـيَـضُ إِصْلِيتٌ وَصَـفْـراءُ عَيْطَلُ[٢]

هؤلاء إذن أصحابه الذين لا يتركونه، ولا يتركهم، وقد ذكرهم على ترتيب قربهم منه، وأهميتهم في هذا الموقف له ولقومه أيضًا؛ فالقلب هو الأساس الذي به تتحرك اليد والرِّجْل، وهو ليس كقلوب بعضهم التي تَرْبِطُ ساعةَ الرَّوْعِ أيديَهم وأرجلَهم[٣]، ثم السيف وهو أقرب مأخذًا من القوس، وأداة نزال مَن اقترب وقتاله، ثم إذا نجا منهم، واستقلّ عنهم رمى مَن بقي بقوسه.

واختار من الصفات ما يناسب أصحابه ويناسب الموقف في الوقت نفسه؛ فالمشيّع هو الجريء كأنه في أصحابه، فقلبه يصحبه، وقلبه كأنه في أصحاب، فهذا رجل بقبيلة، والسيف الإصليت هو

---

(١) بـ (إنّ) والفعل الماضي الدال على المستقبل (كفى)، فإن قيل: إنه يدل على الماضي. قلنا إن سياق الأبيات السابقة أنه كان يخاطب أهله (دونكم)، ثم لنا وقفة مهمة مع البيت الرابع عشر وما يليه تجعل كلامه عن أصحابه جزءًا مهمًّا من سياق خطابه لهم.

(٢) **مشيّع**: جريء، **أبيض إصليت**: سيف صقيل، **صفراء عيطل**: قوس طويلة.

(٣) سيأتي ذكرهم بعد قليل بإذن الله.

المصقول الحادّ، والقوس العيطل هي القوية[1]؛ فإن حاولوا الغدر به فستصلهم سهامها من بعيد.

١٢- هَتوفٌ مِنَ الْمُلْسِ الْمُتونِ تَزينُها
رَصائِعُ قَدْ نيطَتْ إِلَيْها وَمِحْمَلُ[2]

هذه القوس أحب أصحابه إليه؛ اصطحبا طويلا فكان كلما استخدمها آنسته بهتافها، ولم يُؤْذِه مَلْمَسُها؛ فاهتمّ بها وزيّنها بالحلي، وصنع لها حمالة ليسهل عليه حملها.

ينبغي إذن أن يُخيفهم ارتباطه الشديد بقوسه القوية البعيدة المرمى، وينبغي أن يروا في هذا الارتباط مثالَ صدق الصحبة الذي يصوره لهم، ويعرفوا أن تصورهم القديم لا يثبت أمام هذا التصور المتين، وقد اهتم بوصف القوس دون السيف، لأن القوس أكثر ملازمة للمحارب الشجاع من سيفه الذي قد ينكسر أو يُثلم.

وقد وصف بهذا البيت آخر ما ذكر في البيت السابق، وسيوضح بالبيت التالي أول ما ذكر في هذا البيت؛ فلم يؤثّر انفراده بينهم على

(١) يقول المبرد في شرحه اللامية: إنه لم يعلم أحدًا وصف القوس بهذه الصفة غيره. (انظر مجموعًا يشتمل على كتاب أعجب العجب للزمخشري وشرح المبرد، وشرح المقصورة الدريدية وديوان الوردي ص ٢٣).

(٢) **هتوف**: ذات هُتاف أو كثيرة الهتاف، **الملس المتون**: الناعمات الظُّهور، **رصائع**: حُلِيّ، **نيطت**: عُلِّقت، **المحمل**: السير الذي تُحمل به.

تركيزه ومقدرته الشعرية، وسرعة خاطره.

١٣- إِذا زَلَّ عَنْها السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّها

مُــــرَزَّأَةٌ ثَـكْلـى تُـــرِنُّ وَتُـــعْــوِلُ[١]

تنضح نفس الشنفرى بما فيها من هموم وأحزان، فلا يستطيع كعادته[٢] أن يمنعها أو أن يسيطر عليها، هو قويٌّ متماسك، لكنها أقوى وأشد وأكثر[٣]، لو كان غيره من أولئك السعداء المتفائلين لسمع في هتاف قوسه فَرْحَةَ إصابة سهمها الغرض، لكنّ الشنفرى سمع في هتاف قوسه حنين امرأة تعتادها الرزايا الكثيرة، وقد فقدت ابنًا من أبنائها فَحَنينُها أضعاف مضاعفة.

الشنفرى ليس ابنًا عاقًّا، في نفسه حزن على قومه، وفي نفسه من رحيله عنهم، كان يرجو أن تصلح أحوالهم، لكنه رآهم يسيرون من سيّئ لأسوأ، فقرّر الرحيل وفي النفس ما فيها.

وهو يُقدّر الإحسان حتى من الجمادات فهذا الصوت الحزين الذي يصدر عن القوس حزنًا على سهمها زادها قُرْبًا منه.

---

(١) **زل**: خرج، **حنّت**: أصدرت صوتًا يدل على حنينها، **مرزّأة**: كثيرة الابتلاءات، **ثكلى**: فقدت ابنها، **ترن وتعول**: يعلو صوتها بالبكاء والنحيب.

(٢) سيوضّح هذا الأمر فيما بعد.

(٣) أي: ولها صفات أكثر. أو وأكثر من أن يسيطر عليها. كلا الفهمين صحيح.

إسقاط فرية

١٤- وَأَغْدو خَميصَ الْبَطْنِ لا يَسْتَفِزُّني
إِلـى الـزَّادِ حِـرْصٌ أَوْ فُـؤادٌ مُـوَكَّـلُ[١]

لم يبقَ للشنفرى بين قومه ناصر أو مشفق، أو لنُحسنِ الظنَّ فنقولَ: لم يبقَ بينهم أحد على استعداد لإظهار دعمه أو إظهار شفقته، تتعقّد المسألة، ويَتَّسِعُ الخَـرْقُ[٢]، ولا يعرف أحد من الحاضرين كيف سينتهي الأمر، لكنهم لا يرون أملًا في أن يلين أحد الفريقين للآخر، ولا في حل متوسط يتفقان عليه؛ فآثر كل حاضر نفسه ومصالحه.

---

(١) **أغدو**: أسير بين الفجر وشروق الشمس، **خميص**: جائع فارغ البطن، **موكّل**: مشغوف. لم يُنصفْ أحدٌ قبلَنا هذا **البيت المظلوم**، ولا الشنفرى نفسه؛ فإنّه تركَهُ وحيدًا في غرضه من مَلحمته المُذْهلة، وهذا نهجه في القصيدة كلها ألّا يعبأ بالمتلقي ونظرته، بل كان كأنما يكتب يومياته، ويؤرخ لمرحلة من حياته، وقد تكفي الإشارة لتحقيق هذا الغرض، وكذلك لم يكترث للضرورة الفنية التي تضطر غيره من الشعراء إلى أن يوفّوا أغراضهم حقوقها، أمّا الرواة والدارسون فقد بلغَ ظلمُ أكثرِهم إلى أنْ أَسْقَطَه من القصيدة، ومَنْ أَثْبَتَهُ عدَّهُ فَخْرًا يوشكُ يتكرر، فلا عرفوا حقيقته، ولا اقتربوا منها، ولو اقتربوا لقالوا: هجاءٌ لِمُترفي قومِهِ اللِّئام. ولو عرفوا لسبقونا إلى ما نقول، وقد بنينا على هذا البيت بعض ما سبق كانتظاره استيقاظ قومه، ثم خروجه بعد استيقاظهم صباحًا معتمدين على قوله (أغدو)، وكذلك بنينا عليه أنه كان يكاثرهم، لكنه لم يكن يملك مالًا أو أعراضًا كثيرة؛ إذ إنه الآن يغدو إلى وجهته فقيرًا بلا طعام، فهو بيت مهم جدًّا كما ترى.

(٢) من المثل العربي: اتَّسَعَ الخَرْقُ عَلَى الرَّاقع.

ثم غَرِيَ به أحد الرؤساء، وأخذته العزة بالإثم، وكان قد هوّن من أمره، وقلّل من شأنه، ثم زَجَرَ المشفقَ عليه، فلمّا رأى عزيمته وقوة إرادته لم يجد لكسره بدًّا من اتهامه بالخيانة، وأنه يُسيء إلى قومه لصالح غيرهم، وأنّ غريبًا يرجو الشّرّ لهؤلاء قد دفعه لهذا مقابل الإجارة والطعام.

لا يزال هذا المجترئ يتعمّد التهوين من قدر الشنفرى والتقليل من شأنه؛ فيُوهم الحاضرين أنه يَبيع قومه لِملء بطنه، وفي ذلك ما لا يخفى من الخيلاء[١] وسوء الخلق وقلة العقل.

والحق أنّ هذا ما قدّره الشنفرى قبل وقوعه[٢]، وعَلِمَ أنّه لا شكّ واقع؛ فلمْ يأتِ أحد ما أتاه إلا قوبل بمثل هذه الاتهامات، لكنّ الشنفرى ليس كأيِّ ثائر.

وأول ما بدأ به دفعُ التهمة عن نفسه، فإنه يغدو الآن إلى غايته خميص البطن، لم يتفق هو وأحد على شيء، ولا أخذ من أحد شيئًا، ثم إنهم يعرفونه، ويعرفون أنه لا يستفزه إلى الزاد حرص، ولا به إلى الطعام شره[٣].

---

(١) سيذكر الشنفرى هذا قريبًا.

(٢) أشرنا إلى ذلك من قبل.

(٣) ربما كان هذا المجترئ المتعالي أحد إخوته الثلاثة، فخاطبه الشنفرى خطاب مَن يعرفه، =

هجوم مضاد

١٥- وَلَسْتُ بِمِهْيافٍ يُعَشّي سَوامَهُ
مُـجَـدَّعَـةً سُقْبانُها وَهْــيَ بُـهَّـلُ[١]

وكما أن هؤلاء القوم يعرفون الشنفرى وأخلاقه يعرفهم هو أيضًا جيدًا، ولا يخفى عليه من أمرهم شيءٌ[٢].

لم يُرِدِ الشنفرى أن ينحدر إلى هذا المستوى، لكنّ هذا الرجل اضطرّه لذلك لّما اتهمه، ولم يكنْ أمامه بُدٌّ من مواجهته بحقيقته.

إنّ هذا المجترئ عليه الذي يتّهمه بأنه يخون قومه من أجل لقمة يأكلها يرميه بدائه[٣]؛ فلم يكن له عقل يمنعه في صباه إذا خرج للرعي من شُرب حليب النّوق الحديثةِ النتاج الغزيرةِ اللَّبن،

= أي: إنك تعرف أنني لست كذا وكذا، والأبيات التالية تقوي هذا الفرض، لأن الشنفرى سيرد عليه رد العارف بدقة بأخلاقه وتاريخه.

(١) **المِهْياف**: السريع العطش، **يُعَشّي سَوامَهُ**: يتأخر في رعي الماشية إلى الليل، **المُجَدَّع**: السيئ الغذاء، **السُّقْبان**: جمع السقب، وهو ولد الناقة الذكر الحديث الولادة، **البُهَّل**: جمع الباهل وهي الناقة المتروك ضرعها دون رِباط لِتُرْضع صغيرها. ظَنّ أغلب من تعرض لهذه القصيدة أن الشنفرى يفخر بنفسه وقد وقعوا بعيدًا، لأنه لن يفخر بنفي صفات مكررة عن نفسه، وسترى مصداق هذا في الشرح، وقال غيرهم: إنّه يُعدِّدُ فِئات قومه. وقد اقتربوا، لكن لم يصلوا، لأنه لن يوازن بين نفسه وراعٍ صغير شره، والقول ما نقول في الشرح.

(٢) هذه المعرفة الوثيقة تحملنا على الظن أن هذا الرجل أخوه.

(٣) من المثل العربي: رَمَتْني بِدائِها، وَانْسَلَّتْ!

وكان لشرهِهِ لا يقنع حتى يشربه كله، ثم يتأخر في المرعى لتأكل نوقُه وتُلْبِنَ فتُرضع صغارها، وتعود وضروعها ملأى، لكن يغلبه شرهه فيشربه دون صغارها، ويترك سقبانها للجوع والهزال.

١٦- وَلا جُبَّأٍ أَكْهَى مُربٍّ بِعِرْسِهِ
يُطالِعُها في شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ[١]

لكنْ لو صحَّ أنْ يُعيّر إنسان بأخطاء الصِّبا لما نجا إنسان من الذم والمَلام، فما العيب في أن يُخطئ إنسان في صباه!

العيب ليس في أنه أخطأ في صباه، بل العيب أنه لم يتعلم شيئًا قطُّ من أخطائه، وظلّت أخطاؤه تكبر معه كلما كَبِرَ، أرأيتَ هذا الصبي الذي كان شرهًا للطعام، ولا يستطيع أن يمنع نفسه عما يجده منه! لما بلغ وتزوّج ظلّ على شرهه للطعام، وجمع إليه شرهه للنساء[٢]؛ فكان لا يكاد يترك بيته، وانقاد لامرأته بشهوته؛ فكانت هي صاحبة الأمر والنهي، وساعدها على ذلك جُبْنُهُ؛ فكان لحرصه على رضاها يُسرع إليها يسألها عن كل أمر من أموره.

ومن جبنه وشدة انقياده وحرصه على رضاها لم يتزوج عليها غيرها[٣].

---

(١) جبّأ: جبان، أَكْهى: بليد، مُربٍّ: مُلازم، عِرْسه: امرأته.

(٢) وقد عبّر الشنفرى عن ذلك بألطف الكنايات (مربّ بعرسه).

(٣) وصفه الشنفرى بالجبن، وقال إنه ملازم امرأته، ولم يقل بيته أو داره، وكان يطالعها في شئونه كلها، وربما كان عدم زواجه عليها دليلا على جبنه بمقياس ذلك الزمان، فإن كان =

١٧- وَلا خَـــرِقٍ هَـيْـقٍ كَــأَنَّ فُـــؤادَهُ
يَـظَـلُّ بِـهِ الْـمُـكّـاءُ يَعْلو وَيَـسْـفُـلُ(١)

ثُمَّ مضتِ الأيام بهذا المُجْتَرِئ فكان إذا واجَهَتْه شِدَّةٌ هَلعَ، وَتَيَبَّسَ جَسَدُه، ولم يَستطع التصرُّف، فيكون جسمه ثابتًا، وقلبه يَضْطَرِبُ في صدره كأنَّهُ مَشْدودٌ إلى طائر يعلو به ويَسْفُل، وهذا هو المُتوقَّع مِمَّنْ قَضى حياتَه ملازمًا لبيته يَلْهَثُ خَلَفَ شَهواتِه.

١٨- وَلا خـالِـفٍ دارِيَّـــةٍ مُـتَـغَـزِّلٍ
يَـــروحُ وَيَـــغْـــدو داهِــنًـا يَـتَـكَـحَّـلُ(٢)

اكتهل هذا المجترئ، ونال الغنى(٣)، لكنّ طَبْعَه القديمَ لمْ يَتَغَيَّرْ؛ فَقادته شهوته إلى فتاة صغيرة فتزَوّجها، وأَخذَ يُصلحُ بمالِه ما أَفسدَتِ السِّنُّ، ويُهَوِّنُ على المِسْكينةِ التي تَزَوَّجها مُلازَمَتَهُ لها بِالْغَزَلِ(٤).

= فقد أصابوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(١) **الخَرِق**: الشديد الخوف الذي إذا خاف عَجَزَ عَنِ الحركةِ والتّصرُّف، **هَيْق**: ذَكَر النَّعام وهو معروف بالخوف، **المكّاء**: نوع من الطيور.

(٢) **الخالف**: المتأخر عن الناس، أو الذي لا خير فيه، **داريَّة**: مُلازِم داره، **داهنًا يتكحّل**: يَتَجَمّل.

(٣) للشنفرى رأي في هذا سيذكره في البيت الثاني والخمسين.

(٤) انتبه أ. د. محمد جمال صقر إلى أن الشعر قد يُوَرَّث، وأنه لأمر ما وُجدت أُسَرُ الشعراء منذ أولية الشعر العربي، فليت شعري أيكون هذا المتغزل قد ورث والشنفرى الشعر من أصل واحد؟ انظر د. محمد جمال صقر، وراثة الشعر http: //mogasaqr.com ، ود. محمد جمال صقر، شعر أبي سرور الجامعي بين المعارضة والتخميس، ص ١، والبحث منشور على موقعه المبارك، أحسن الله إليه!

الإنسان يقلّ تَباهيه كلما كَبِرتْ سنُّه، أمّا هذا فلا يتغيّر.

ولم يهتم الشنفرى بذكر مصير امرأته الأولى[١]؛ إذ لم يكن أمرها من شأنه، ولا من شأننا.

١٩- وَلَسْتُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دونَ خَيْرِهِ
أَلَفَّ إِذا ما رُعْتَهُ اهْتاجَ أَعْزَلُ[٢]

وقد أطاع هذا المُجْتَرِئُ شهواتِ بَطْنِهِ وَفَرْجِهِ فَزادَ وَزْنُهُ، وكانتْ أَمْوالُهُ ومسؤولياته تَزيدانِ في الوقتِ نفسِه، فَكانَ إذا حَكَمَ في أَمْرٍ حَكَمَ بِما يَسوءُ الضُّعَفاءَ العاملين معه وَيُتْعِبُهُمْ، وكانَ غَبيًّا يُسيءُ اخْتيارَ ضَحاياهُ، فَإِنْ تَجَرَّأَ عَلَيْهِ أَحَدُهم لِيُخيفَهُ فقط فَزِعَ، وَحاولَ أَنْ يَحْميَ نفسَه، ولكنْ لِضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حيلَتِه يَنْسى سلاحَهُ.

٢٠- وَلَسْتُ بِمِحْيارِ الظَّلامِ إِذا انْتَحَتْ
هُدى الْهَوْجَلِ الْعِسِّيفِ يَهْماءُ هَوْجَلُ[٣]

ثم أضحت السيادة لهذا المجترئ، وخضع له الناس في الحق

---

(١) لن يدهن ويتكحل ويتغزل في امرأة ظلّت معه مدة طويلة، ولو فعل ذلك لعدته المرأة سخفًا؛ أبعد اكتهالهما ولم يفعله في شبابهما! إنما يفعل ذلك لصغيرة تخدعها الكلمة الحلوة والمنظر الجميل.

(٢) **العَلّ**: التَّيس الضخم، **دونَ**: أقرب، **أَلَفّ**: ثقيل.

(٣) **المحيار**: الشديد الحيرة، **انتحت**: قصدت، **الهوجل (الأولى)**: الأحمق أو المتواني، **العسيف**: السائر على غير هدى، **يهماء هوجل**: صحراء واسعة لا معالم لها.

والباطل، انظر إلى تلك القافلة المبتلاة التي خرج فيها، فلم يتحمّل السفر، ولا أطاق البعد عن داره، فأمرهم، وأطاعوه، فضلّوا، ثم لم يستطع أن يسيطر على خوفه، وطاش عقله[1]...

اعتاد هذا المجترئ أن يعرف أسرار الناس، وما كان للشنفرى أن يَسكت فيقرّ على نفسه بالخيانة وعدم المروءة واستحقاق العقاب، وكيف يَسكت بعد أن أباح له هذا المجترئ سرَّه! فالجزاء إذن من جنس العمل، وقد أحسن الشنفرى الاستعداد لهذا الموقف[2].

الانتصار السعيد

٢١- إِذا الْأَمْعَزُ الصَّوّانُ لاقى مَناسِمي
تَطايَرَ مِنْهُ قادِحٌ وَمُفَلَّلُ[3]

سِتُّ ضربات متتابعات موجعات فاضحات حارَ بها المجترئ

---

(١) ولا يمكن بأي حال أن يكون هذا البيت والخمسة التي سبقته في الفخر، وأي إنسان هذا الذي يفخر بأنه ليس شديد الحيرة في الصحراء! ثم إن هذه الأبيات الستة اشتركت في نفي الصفات نفسها تقريبًا، وهذا ليس بفخر، ولو أنه يعدّد أصناف قومه كما ظنّ بعض الدارسين لاكتفى مما ذكر ببيت أو اثنين، ثم ذكر صفات أخرى مختلفة.

(٢) فإن كان هذا المجترئ غير معتاد على السفر فكيف جمع ماله؟ يبدو أن اقتصاد هذا المجتمع لم يكن يعتمد على التجارة، ويبدو كذلك أنه كان مجتمعًا مستقرًّا يعيش حياة سهلة لينة أضعفت نفوس رجاله حتى هان على نسائهم أن يسيطرن عليهم.

(٣) **الأمعز الصوان**: الحجر الصلب الغليظ، **مناسمي**: أخفافي، **قادح**: حصى يخرج معه شرر، **المفلل**: الحجارة المكسّرة.

الشقيّ ولم يجد ردًّا كعادته إذا اشتدّ عليه أمر فَخَنَسَ، ورأى شماتة المحيطين المُقِرّين وسمع همسهم فَخَزِيَ وَذَلَّ.

أمّا الشنفرى فيمضي في طريقه لا يعرف أيتركونه أم يمنعونه، لكنّ مروره بهم لم يكن لاستئذانهم، هو راحل راحل، فمضى، فتركوه لشأنه مكتفين بما حصّلوا!

فلمّا تمّ له الخروج من بينهم، وأيقنَ بالنصر والسلامة، وأحسّ للمرة الأولى بالحرية الكاملة وبالخلاص التامّ، نحّى عن عينيه كل همومه وأحزانه، وترك السعادة تغمر قلبه، وتفكّ قيده، وتضع أغلاله، فقام قلبه يقفز في صدره، وعمّ الطرب جسمه، وجرت به راحلته[1]، ثم نظر فإذا الدنيا غير الدنيا، وهذا الصباح الجميل غير أي صباح، والشنفرى غير الذي كان؛ لقد تقطّع بينه وبين ذلك الماضي البعيد، ولقد انتصر على همومه وأحزانه للمرة الأولى، ولن تعود؛ فنزل عن راحلته، وحرّرها كما تحرر[2]، وتركها بما عليها من

(١) أغلب الظن أنه واجه قومه راكبًا لِيُرى ويُسمع.

(٢) لم يختر الشنفرى نغمة بحر الطويل عبثًا، بل اختارها ليسجّل كل شيء بعمق وهدوء، وسنرى برهان ذلك فيما نستقبل من أبيات، وسنرى أنه كان ربما ترك موضوعه الذي أخذ فيه ليوضح ما عرض له، ثم يعود إلى ما كان فيه، وسننبه إلى ذلك في مواضعه بإذن الله، ولم يذكر الشنفرى شيئًا عن راحلته في القصيدة كلها صراحة سوى ما جاء عنها إجمالًا في البيت الثاني، ولا ذكرها في أصحابه، ربما لأن ذكرها لم يناسب موقف التهديد والوعيد، وربما لأنها لن تصحبه طويلا بالفعل، وظنّ الشنفرى أن حياته الجديدة ستعتمد على الصيد =

ماضيه الكريه، وخلع نعليه[1]، ومضى يجري على يديه ورجليه إلى جوارها حينًا[2]، وما المانع! ومَن يلومه! إنه حرٌّ وقويٌّ وغنيٌّ؛ إن هذه الصحاري الواسعة بما فيها له، وإنه يشعر أن أحجار الأرض الصلبة تكسّرها ضربات يديه ورجليه القوية، فتتطاير قطع منها وشرر، وإنه حر من كل الأعراف التي قيّدته طوال عمره، فما له لا يجري كيف يشاء!

نهاية



= والقنص، ولا مكان في حياة كهذه لناقة أو غيرها، وحياة كهذه تحتاج إلى التخفف من كل ما قد يَعوق حركته أو يدلّ عليه، وقد صحب غيرها مدة قصيرة فلم ينسها بسرعة ولا هان عليه تركها بسهولة، وذكرها بما يشي بإلفه إياها كما سنرى، فكيف يصحب هذه مدة ولا يذكرها! والرجل غير جشع، ضنين بموارد البيئة غير موكّل بالطعام فلن يذبح ناقة من أجل قطعة لحم صغيرة ينالها منها، وما كان له أن يتركها لقوم يجاهرهم بالكره والنفور مع حرصه على مكاثرتهم عند رحيله عنهم. ثم كأن الشنفرى لم يعرف طوال حياته الأسفار البعيدة والرحلات الطويلة؛ فلم يرَ من الدنيا إلا ما أحاط به فكان منه مادّة بيانه، وفيه مَعدِن أوصافه، وكان سبب حدّته وعُنفُوانه وصفاء فطرته وضعف علاقته براحلته. فهل انحدرت هذه الصفة إليه وإلى ذلك المجترئ من أصل واحد؟

(١) سنجد مصداق هذا كله في أبيات تالية.

(٢) لذلك قال: مناسمي. كأنه شابهها بالمجاورة، في حين عبّر عن قدميه العاريتين بعد ذلك بـ (عاملتين).



مواجهة الجوع

ليست كل نهايةٍ سعيدةٍ نهايةً حقيقيةً، أجل، هي -إن كانت- نهايةُ مدة بما فيها، لكنها أيضًا بداية مدة أخرى مع ما فيها، انتهت ثورة الشنفرى وخروجه بالنصر السعيد، لكن قصته لم تنتهِ عند تلك اللحظة.

ولا ندري أَعَرَفَ ما سيكون بعد ذلك أم ظنّ غَيْرَهُ، لكنه في كل الأحوال أبى أن تنتهي ملحمته قبل أن يضيف إليها هذا الجزء المهم الذي فصّل فيه حياته في الصحراء بعد أن استقرّ بها عامًا تقريبًا[1].

٢٢- أُديمُ مِطالَ الْجوعِ حتّى أُميتَهُ
وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ[2]

ربما حَسِبَ الشنفرى أن حريته الكاملة وراحته الخالصة في خروجه على نُظُم عصره الاجتماعية كلها، وظنّ أنه قادر على

(١) استندنا في هذا التقدير إلى البيت السادس والستين.

(٢) **أديم**: أستمر، **مطال**: مماطلة، **أضرب عنه الذكر صفحا**: أتجاهله، **أذهل**: أنسى.

السيطرة على حياته سيطرة تامّة إن استقلّ عن الناس، لكنه اكتشف لمّا انفرد عنهم أن أصول قيود الإنسان مغروسة في نفسه، ولا بد من جهاد النفس حتى تستقيم.

فكان مما أخذ به نفسه أن يتخلّى عن الحاجات التي يمكنه التخلي عنها كلها وإن رآها سواه أساسية[1]، أمّا حاجاته التي لا حياة دونها فنَزَلَ بها إلى أدنى مستوياتها، واكتفى منها بما يُبقيه حيًّا؛ فمعياره الوحيد في سعيه على هذه الحاجات أن يبقى حيًّا لا غير، أما حفظ قواه فإن إرادته لا تفارقه، وهي أساس قوته.

يريد الشنفرى أن يسجّل متطلّبات بقائه في بيئته الجديدة وكيفية معاملته لها؛ فبدأ بأهمها وأكثرها إلحاحًا، ولم يكن العطش أشد ما يواجه، برغم اختياره الصحراء القاحلة مأوًى ومتعزّلًا ومع أن حاجة الإنسان إلى الماء أكثر من حاجته إلى الطعام، لأن ماء الصحراء كماء القبيلة لا فرق بين هذا وذاك، لكن أمر الطعام مختلف[2]، وبئر أو بركة ماء تُغني إنسانًا منفردًا، وتُشبع حاجته من الماء مدة طويلة، وربما مدةَ حياتِه كلها، لكنّ الطعام لا يوجد بهذا القدر في مكان واحد مدة طويلة.

---

(١) سنرى دليل ذلك في أبيات تالية.

(٢) لاختلاف أصنافه، وما تحتاج إليه، مما لا يكون إلا مع تعاون.

هذا، ولم تكن أشدّ عقباته قلة ما يجد من الطعام أو ندرته، لأنّ فؤاده لم يكن مُوَكَّلًا به، بل كان الجوع العقبة الشديدة، لأن همَّه كان جهاد غرائزه والسيطرة عليها وعلى مُحرِّكاتها، وكانت شِدَّتُه من شعوره بألمه، ومن تفكيره في الطعام.

ولا ندري إن كان أول انتباهه لهذا الأمر بسبب معرفته بذلك المجترئ الشره أو من تجربته الشخصية، لأن شره ذلك المجترئ لم يكن بسبب شعوره بالجوع في الأساس، بل كان لتفكيره الدائم في الطعام، لهذا رأيناه منذ كان صبيًّا يشرب ما يجتمع في ضَرْع الناقة كله كلما امتلأ؛ كأن رؤيته الضَّرْع تحرك أفكاره، فيتوهم الجوع فيشرب.

لم يكن غرض الشنفرى إذن إشباع حاجة من حاجاته، بل كان البقاء حيًّا، وقد يحيا الإنسان مع الجوع، فليكن من الآن صاحبًا له في رحلته.

لكنّ الجوع صاحب ملحاح، وقد أحسن الشنفرى سياسته فبدأ بمطاله؛ يعطيه من الأمل ما يُطاوله به إلى أن ينتهي الشعور به، ولا يبقى منه إلا الذكرى، فيتجاهلها، فكيف كانت؟ وكيف كان يتجاهلها؟

٢٣- وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلا يَرى لَهُ
عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ[١]

---

(١) **الترب**: التراب، **الطول**: الفضل، **امرؤ**: إنسان، **متطوِّل**: متفضل. وقد ظنّ أحد الدارسين أن متطولا اسم مفعول (مُتطوَّل) وهذا خطأ بلا شك، لأنها لو كانت كذلك لوجب نصبها.

قد يتغافل الشنفرى، لكنه لا ينسى ولا يسامح[1]؛ فلم يكن ينسى ذلك المجترئ الذي أهانه وأشباهه، ولا كان ينسى حاشية ذلك المجترئ التي تحفّ به، وتنال من فضله، وهو هنا يواجه الجوع وقسوة الحياة، والشيء بالشيء يُذكر فكان يذكر أنه كان قادرًا -إن أراد- أن يوجِد لنفسه مكانًا حول ذلك المجترئ أو أحد يشبهه[2]...

فكان يقطع على هذه الوساوس طريقها بأن ذلك المجترئ لا يحترم أحدًا[3] ممن يتفضّل عليهم، بل يستطيل عليهم، وينال منهم، ويتوقع دائمًا أن يُداروه ويُداجوه، وأن الأكرم للشنفرى أن يملأ جوفه ترابًا مِمّا تحت قدميه على أن يرى إنسانٌ منهم فضلًا له عليه.

٢٤- وَلَوْلا اجْتِنابُ الذّامِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ
يُعاشُ بِهِ إلّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ[4]

تُزيل عبارتُه السابقةُ بعضَ التشويش فَيَرى جزءًا أكبر من الحقائق، وأنه قادر إن أراد أن يكون بعقله وحزمه وحسن تدبيره الأغنى، بل وأن يحتكر كل فضل، حتى لا يجد أحد منهم طعامًا أو شرابًا إلا لديه!

(١) سيأتي تأويل ذلك.
(٢) ربما بدأ الشنفرى بهذا لأن ذلك المجترئ أخوه، فالشنفرى أحق من الغريب بأن يُقرّب ويُعتمد عليه.
(٣) ولو كان أخاه.
(٤) **الذام**: العيب، **يُلفى**: يوجد.

لكنْ ما كان لأحد أن يصل إلى هذه المكانة إلا باقتراف المعايب والآثام التي لا يرضاها الشنفرى لنفسه، فإن رضيها فإن الأَوْلى به أن يكون سيِّدًا مع الذام على أن يكون تابعًا ذليلًا معه!

٢٥- وَلٰـكِـنَّ نَفْسًا مُـرَّةً لا تُقيمُ بي
عَلى الـــذَّامِ إلّا رَيْـثَـمـا أَتَــحَــوَّلُ[١]

فهو لا يقبل الذام لا متفضِّلًا ولا مُتفضَّلًا عليه، وليس يمنعه المبدأ فقط، بل يمنعه طبع غالب لا سبيل لتغييره، فإن لانَ أو ضَعُفَ فإنه لن يَلبثَ حتّى يعود إلى ما هو فيه الآن.

وبهذا يذهب التشويش كله، ويوقِفُ إلحاحَ تلك الوساوس، ويَسهل عليه تجاهلها.

٢٦- وَأَطْوي عَلى الْخَمْصِ الْحَوايا كَما انْطَوَتْ
خُـيـوطَـةُ مـــارِيٍّ تُـغـارُ وتُـفْـتَـلُ[٢]

أراد الشنفرى تسجيل متطلَّبات بقائه في بيئته الجديدة وكيفية معاملته لها، لكن اعترض سياقه فكرة تفكيره في الطعام وكيفية تجاهلها، والآن يعود لسياقه الأول؛ فيعيد جزءًا من المعنى الأول ويزيد عليه[٣].

---

(١) **النفس المرّة**: الصعبة الأبية، **ريثما**: حتى، **أتحول**: أنتقل.

(٢) **أطوي**: أبقى دون طعام، **الخمص**: خلاء البطن من الطعام، **الحوايا**: الأمعاء، **خيوطة**: جمع خيط، **ماريّ**: إزار من الصوف المخطط، **تغار**: تُحكم فتلًا، **والفتل**: اللَّي.

(٣) تكرّر هذا الأسلوب في القصيدة حتى خفتُ أن نكون فقدنا من القصيدة أبياتًا بين بيتيها =

فهو يماطل الجوع، ثم يتجاهل التفكير فيه، ويبقى على ذلك ما شاء الله له أن يبقى صابرًا راضيًا؛ فهو الذي يطوي بطنَه على الخَمص، ويطويها بشدة وإحكام كما تُفتل خيوط ذلك النوع من الملابس وتُغار.

استعصاء القوت

٢٧- وَأَغْدو عَلى الْقوتِ الزَّهيدِ كَما غَدا
أَزَلُّ تَـهـاداهُ الـتَّـنـائِـفُ أَطْـحَـلُ[١]

تستمرّ مدّةُ طيِّه على الخمص حتى يُشرف على الهلاك، ويحتاج إلى ما يمسك رمقه، لكنه غير موكّل بالطعام، لذلك يقرر أن يبحث عن قوت زهيد، فيخرج في الصبح وقتِه المفضّلِ ليسعى على حاجته، والبُكور عادة أولي الحزم، فيكون في غدوّه كذلك الذئب الأزلّ الذي غدا يبحث عن أيّ طعام؛ فكان ينتقل من صحراء إلى صحراء...

٢٨- غَدا طاوِيًا يُعارِضُ الرّيحَ هافِيًا
يَخوتُ بِـأَذْنـابِ الشِّعابِ ويَعْسِلُ[٢]

= السادس والستين والسابع والستين، ثم انتبه إلى أنه ذكّر بما كان فيه وختم بتشبيه، وبهذا الأسلوب نفسه بنى البيتين الثالث والثلاثين والثاني والأربعين.

(١) **يغدو**: أي يسعى بين وقت الفجر وطلوع الشمس، **القوت**: الطعام الذي يمسك الرمق، **الزهيد**: القليل، **الأزل**: الذئب خفيف اللحم، **تهاداه**: تتقاذفه، **التنائف**: الصحاري القاحلة، **أطحل**: رمادي فاتح. وقد ظنّ بعض من تعرض لهذه القصيدة أنه يغدو برغم أنه لم يأكل إلا قوتًا زهيدًا، وهذا خطأ، بل يغدو بحثًا عن القوت الزهيد.

(٢) **يعارض الريح**: يستقبلها (يسير عكس اتجاهها)، **هافيًا**: مُسْرِعًا، **يخوت**: يطارد، =

غدا هذا الذئب طاويًا منذ مدة، وبرغم جوعه وضعفه كان يجري مسرعًا عكس اتجاه الريح ليجد فيها رائحة صيدٍ مرّت به[1]، فإذا وجد تتبّعه وطارده في أطراف الشعاب، لكنه لا ينجح دائمًا لأن كل حيوان يمتلك من المهارات ما يكفيه ليحمي نفسه، ومع ذلك يستمرّ الذئبُ في عدوه وبحثه...

٢٩- فَلَمّا لَـواهُ الْقوتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّهُ
دَعــا فَــأَجـابَـتْـهُ نَـظـائِـرُ نُــحَّــلُ[2]

لم يستسلم الذئب في بحثه برغم خيباته المتكررة حتى وجد نفسه قد عاد إلى المكان الذي خرج منه، فعوى، فعوت له ذئاب هزيلة مثله.

٣٠- مُهَلْهَلَةٌ شِيبُ الْـوُجـوهِ كَأَنَّها
قِـــداحٌ بِـكَـفَّـيْ يـاسِـرٍ تَـتَـقَـلْـقَـلُ[3]

= **أذناب**: أطراف، **الشعاب**: الطرق في الجبال، **يعسل**: يضطرب في عدوه. وربما استخدم (هافيًا) دون غيرها لحكمة؛ فـ هفا الثوب وغيره في الهواء إذا ذهب فيه، فهذا الذئب يجتهد في معارضة الريح برغم جوعه وضعفه، وسيمر الشنفرى بمثل ذلك أو أشد منه بعد قليل.

(١) انظر: ديوان الشنفرى، جمع وتحقيق وشرح د. إميل بديع يعقوب، ص ٦٤.

(٢) **لوى**: عطف أو ثنى، والمقصود أعاده، **أَمّه**: قَصَدَهُ، **نظائر**: أشباه، **نُحّل**: هزيلة. وشرح هذا البيت في المصادر المتاحة لي أن الطعام امتنع عليه من حيث أراده، ولا بأس به، لكن ما أثبتناه أرجح.

(٣) **مهلهلة**: هزيلة، **شيب الوجوه**: في شعر وجهها بياض، **قداح**: جمع قدح وهو من أدوات القمار حينها، **ياسر**: مقامر، **تتقلقل**: تضطرب.

٣١- أَوِ الْخَشْرَمُ الْمَبْعوثُ حَثْحَثَ دَبْرَهُ
مَحابِيضُ أَرْداهُنَّ سامٍ مُعَسِّلُ[(١)]

هذه الذئاب التي أجابته كانت هزيلة مثله، وفي وجهها شعر أبيض خلقة ولا يدل على سِنٍّ، لكنّ ما أثار عجب الشنفرى أنها كلها أجابت في الوقت نفسه، كما تتحرك القداح في كفي الياسر في الوقت نفسه، وكما تنطلق جموع النحل في الوقت نفسه لحظة وضع جامع العسل المرتقي إلى الخلية عصاه فيها[(٢)].

٣٢- مُهَرَّتَةٌ فُوهٌ كَأَنَّ شُدوقَها
شُقوقُ الْعِصِيِّ كالِحاتٌ وَبُسَّلُ[(٣)]

---

(١) **الخشرم**: جماعة النحل، **المبعوث**: الهارب، **حثحث**: حضّ وحثّ، **الدبر**: النحل، **محابيض**: عُصي يُجنى بها العسل، **أرداهن**: أصاب بهن، **سام**: مرتقٍ، **المعسل**: الجامع العسل.

(٢) وقد أساءَ مَن تعرّض لهذا التشبيه فهمَه فظنّوا أنه يشبّه حركة الذئاب المستجيبة بحركة القداح وبحركة النحل المبعوث، وهذا خطأ، فأين الحركة التي شبهها بحركة السهام أو بحركة النحل! وهل حركة القداح المجموعة كحركة النحل المنتشر! فكيف إذن يشبه حركة الذئاب الواحدة بحركتين مختلفتين! بل يشبه الاستجابة بأنها كانت جماعية في الوقت نفسه كحركة أعواد القمار بكفَّيْ ياسرٍ واحد وكحركة النحل إذ تكون في الوقت نفسه، وفي الأبيات التالية مصداق ذلك؛ إذ نراه ركّز على مراحل هذا العواء، وشرحه فوقّ، وقد وصف مظهر هذه الذئاب بدقة حتى لم يدع الشَّعْر الأبيض في وجوهها، فلمَ لم يصوّر تجمعها وتفرقها!

(٣) **شدوق**: جمع شدق وهو جانب الفم، **مهرتة**: واسعة الأشداق، **فوه**: مفتوحة الأفواه، **كالحات**: عابسات، **بُسّل**: كريهة المنظر.

ولا يعود الشنفرى لحكايته حتى يستكمل رسم الصورة؛ فإن هذه الذئاب كانت واسعة الأشداق، فُوهًا كأن شدوقها عصيّ مشقوقة، كئيبة كريهة المنظر، فهذه الذئاب التي يَرثي لحالها هي إذن الذئاب نفسها التي نعرفها ويعرفها الناس منذ القدم[(١)].

٣٣- فَضَجَّ وَضَجَّتْ بِالْبَراحِ كَأَنَّها
وَإِيّاهُ نَوْحٌ فَوْقَ عَلْياءَ ثُكَّلُ[(٢)]

استطرد الشنفرى قبل قليل في وصف عوائهم وهيئاتهم قبل أن ينتهي من شرح ما حدث بعد عودة الذئب، ثم أراد أن يُكمل كلامه الأول فَذَكَّرَ على عادته بآخر ما انتهى إليه، وزاد عليه[(٣)].

عاد الذئب الجائع خائبًا فدعا بني جنسه فاستجابوا كلهم في اللحظة نفسها بهيئاتهم الموصوفة، فكانوا جميعًا في اتحاد عوائهم وتشابه هيئاتهم كنساء مثاكيل تنوح فوق مرتَفَع في

---

(١) بيان هذه الجملة فيما يأتي.

(٢) **ضجَّ**: صاح، **البراح**: الأرض الواسعة الفارغة، **نَوْح**: نساء نائحات، **علياء**: مرتَفَع، **ثكّل**: فقدن عزيزًا عليهنّ. **وكلمة نوح** مضبوطة في شرح الزمخشري (نُوح) بضم النون، وقد نقل الدارسون هذا الضبط، لكن الصواب (نَوْح) بفتح النون لا غير.

(٣) وهو الأسلوب الذي نبّهنا إليه من قبل عند كلامنا عن البيت السادس والعشرين، والبيتان متشابهان إلى حد بعيد كما بينّا.

زِيِّ الحِداد، فلم يكن عواؤهم غير ضجيج لا فائدة له إلا الإزعاج[(١)].

٣٤- وَأَغْضى وَأَغْضَتْ وَاتَّسى واتَّسَتْ بِهِ
مَـرامـيـلُ عَـزّاهـا وَعَـزَّتْـهُ مُـرْمِـلُ[(٢)]

لم يستطرد في وصف ذلك المأتم إذن لأنه كان للتذكير بسياق الكلام، لذلك مضى يكمل حكاية الذئاب، فإنها بعد أن عوت سكتت جميعًا صابرةً[(٣)]؛ يقتدي كل ذئب منها بالآخر، ويُقوّي كل ذئب منها بصبره صبر أخيه، ففيمَ إذن كانت الضجّة؟

---

(١) ولا فائدة من عواء الذئاب لأنه بالبراح، ثم إن الذئاب الموجودة كلها تعوي، فَلِمَنْ تعوي؟ فذِكْره (البراح) لهذا الغرض، وستزيد الأبيات التالية الصورة وضوحًا، وليس بمستغرَبٍ على الشنفرى ألا يرى في نوح النائحات غير الإزعاج بسبب استهانته بالموت، ولولا استهانته به ما كان الشنفرى.

(٢) **أغضى**: سكت، **اتّسى**: اقتدى، **عزّاها**: صبّرها، **المراميل**: جمع **المرمل** وهي الفاقدة الطعام المحتاجة إليه.

(٣) وقد ظنّ الشرّاح أن الذئب الطاوي الذي شبّه به الشنفرى في البيت السابع والعشرين أغضى أولًا فتبعتْه الذئاب المستجيبة له، ثم ظنّ بعضُهم أنه رئيسهم تبعًا لفهمه، وليس الأمر كذلك، لكن الشنفرى لو عبّر عنه وعنهم جميعًا معًا بصيغة واحدة لانْصرفَ فهْم أغلبِ السامعين أو كلهم إلى أن الذئاب المستجيبة هي فقط التي أغضت، وكان يقدر أن يقول: وأغضى فأغضت... إن هو أراد ما فهموا، كما فعل في البيت التاسع والعشرين (دعا فأجابته...)، لكنه لم يقصد إلّا أن يجمعه مع الذئاب المستجيبة في إغضائها، ثُمَّ فيما تفعل من بعد.

رجوع واستسلام

٣٥- شَكا وَشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوى بَعْدُ وَارْعَوَتْ
وَلَلصَّبْرُ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ[(١)]

خاب سعي الذئب خيبة شديدة، فعوى، فعوى له أصحابه، فَفَسَّرَ الشنفرى عواء الذئب بأنه نداء لأصحابه، وفسّر عواء أصحابه بإجابة له، وهو تفسير منطقي مقبول جدًّا، ثُم كأنه توقّع أن تدرك هذه الحيوانات بفطرتها حاجتها لحفظ قواها أو يغلبها جوعُها وهزالُها فتهدأ، لكنها لم تفعل بل ضجّت بالعواء جميعًا معًا، فعجل الشنفرى إلى تفسير هذا العواء بالضجيج الذي لا فائدة له كنَوْح الثكالى لا يقدّم ولا يؤخر.

أطرق الشنفرى يفكّر؛ إنه لا يمكن أن يكون عواء عاديًّا إنه لغرض، وفي هذه الحال لا يمكن أن يكون إلا شكاية جماعية عامة، لكن كيف يكون كذلك وهو (بالبراح)!

لم يَطُلْ عواء الذئاب، لكن طال إطراق الشنفرى متفكّرًا في أمرهم[(٢)]، وجمع إلى مقدمته الأولى مقدمة ثانية: إن هذه الذئاب الشاكية لم تُغْضِ تعبًا أو انشغالًا، وإنما ارعوت عن الشكوى،

---

(١) **ارعوى**: رجع رجوعًا حسنًا.

(٢) لذلك استخدم (ثُم) بعقب (وشكت)؛ فالارعواء لم يتأخر، لكنه هو تأخر في جمع المقدمتين كما سترى.

واتسى بعضها ببعض في مشهد يدل على وجود وازع واحد تغشّاه الجوع للحظات، ثم انحسر، فما هو؟

أدركَ الشنفرى بفطرته أن عواء الذئاب الجماعي ليس إلا شكاية وأن الشكوى لا تكون إلا لسميع بصير وإن حدثت في براح، وأدرك كذلك أن إغضاءهم رجوعٌ حسنٌ إلى إيمان راسخ مستقرّ، وقد كشفت الذئاب بفعلها مَعْدِنَ الإيمان الفطري في قلب الشنفرى، لكنه كره أن يستسلم سريعًا لهذا اليقين المستقرّ في نفسه فدفعه عن فكره بأن ارعواء تلك الذئاب لم يكن إلا إيثارًا للصبر الجميل حين لم تجد نفعًا لشكواها، لكنه برغم ذلك لم يجرؤ على إنكار وجود السميع البصير -سبحانه، وتعالى!- بل أنكر نفع الشكوى بما يدل على أن نتيجة المقدمتين قد تمكّنت من قلبه، لكنه يكابر ولن يلبث حتى يعود.

وقد أعان الشنفرى على أن يجحد هذا اليقين الفطري في نفسه أن غرضه الحقيقي من قصة الذئاب هو ما ختم به هذا البيت؛ فإنّ منظرها أثار حسرتَه على حياته وما عانى فيها، لقد كشفت هذه الحكمة البسيطة الموجزة في هذا السياق النبيل المؤسّي مرارة نفسه، وتتبعتْ أثر خيباته ورزاياه عليها، واستدعت حسراتِه فقارَنَ أحوالَه هو وشركاء بيئته بأحوال غيرهم ممن لا يستحقون النعمة التي يعيشون فيها فغضبَ، ومرّت أمامه ذكرياته كلها حتى وصل

لهذه اللحظة غاضبًا متحسّرًا فأنكر، وغلب بغضبه فطرتَه[1].

٣٦- وَفـاءَ وَفـاءَتْ بـادِراتٍ وَكُلُّها
عَلى نَكَظٍ مِمّا يُكاتِمُ مُجْمِلُ[2]

فإن يكن غضب الشنفرى قد حال بينه وبين فطرته السليمة حين كان في قومه، ثم حال ذكره إياهم بينه وبين التسليم المقرّ بهذا اليقين الفطري حين كشف ارعواء الذئاب معدنه -فإنه لم يلبث أن عاد إلى الإقرار بهذه الحقيقة الثابتة في قلب كل مخلوق فَفاءَ إلى فطرته السليمة غير مُكابر أو مدافع بل مقرًّا خاضعًا ومفسّرًا أيضًا؛ فإن شكاية الذئاب لم تطل، بل فاءت مسرعة مبادرة، ثم إن الجوع

(١) راجع ما نشرته صحيفة الدايلي مايل على موقعها بتاريخ ١٩/ ٦/ ٢٠١٢م مشفوعًا بالصور تحت عنوان: (Preaching to the park: Squirrel captured in divine pose as he reaches to the heavens for his next meal) تحكي فيه عن رجل رأى سنجابًا أعياه البحث عن طعام فرفع يديه إلى السماء كمن يدعو ربه، فصوّره الرجل، ثم ألقى إليه صاحب المصوّر حبة جوز فالتقطها السنجاب، ثم نظر إلى السماء شاكرًا، راجع الصور والموضوع، واعلم أنني أفهم الإنكليزية بصعوبة، وإن شئت أن تكتفي بتأمل قول الشنفرى: (شكا وشكت) كفاك؛ فإن الشكاية لا تكون لفراغ، وإن أردت المزيد فضع عبارة الشنفرى في سياقها، ثم تأمل كيف عبّر عن العواء أولا بأنه دعاء وإجابته، ثم ضجيج، ثم شكاية، وتأمل كذلك تعبيره عن صمت الذئاب بالإغضاء اتساءً، ثم بالارعواء، ثم بالفيئة، كان العواء مرحلتين في الواقع، لكن كان له في نفس الشنفرى ثلاثة أطوار، وكذلك كان الامتناع عن العواء ثلاثة أطوار في نفس الشنفرى مع أنه كان في الواقع توقف واحد.

(٢) **فاء**: ثاب ورجع، **بادرات**: مسرعات، **نكظ**: شدة.

لم ينته بالشكوى ولا هدّأت الشكوى ألمه، بل إنها فاءت على نكظ مما تكاتم، وقد علم أنها تكاتم الجوع لأنه يشعر بما تشعر به ويكاتم مثلما تكاتم هذا الجوع الذي يريد أن يستعلن مع كل عضة ألم، لكنها تمنعه بإيمانها صابرة متجمّلة راضية كما يفعل هو أيضًا الآن[1].

وتأكيد الشنفرى على هذا المعنى ضروريّ، لأنه سبب ذكره هذه القصة المؤسّية بتفاصيلها الدقيقة[2]؛ فالجوع صاحب له لم يختره، ومع ذلك لا يتركه، والصبر غذاؤه الذي لا غِنى له في هذه البيئة عنه، والعزيمة هي ما تبقيه حيًّا.

فإن كانت الذئاب التي خُلقت لهذه البيئة تعاني هذه المعاناة على القوت الزهيد فليس يعيبه أن يعاني هو أيضًا والبلوى عامة، لكنه مع هذا حريص على ألا يُظهر أي فرق بينه وبين الذئب؛ فخالقهما واحد ورازقهما واحد، ثم إنها بيئته الآن يستدرك فيها بعزيمته وأخلاقه ما فات طبيعته.

ولم يأنف الشنفرى أن يُظهر هذا الاختلاف الشاسع بين عالم

(١) فالفيئة هنا إذن ليست رجوعهم للبحث عن الطعام ولا رجوعهم لأوكارهم كما قيل، ثم إن (يكاتم) تعني مُفاعلة الكتمان، وهذا أمر مخفي في صدر من يعالجه فكيف عرفه الشنفرى إلا أن يكون معالجًا للأمر نفسه؟

(٢) فهو لم يقصد هنا إلى تشبيه بحثه عن الطعام ببحث الذئب، ولا قصد إلى توضيح صعوبة الحصول على الطعام في تلك البيئة وندرته، ولا يُصور ما افتقده في قومه الذين رحل عنهم.

الحسّ وما يعاني فيه، وبين عالم الخيال وما كان يظن فيه؛ لقد كان قبل عام تقريبًا من الآن لا يجد مثالًا يُصوّر به لقومه حياة الصحراء غير مشهد المطاردة الباسلة والانتصار والتفضّل، وهو الآن لا يجد هو وشركاء بيئته ما يحفظون به رمقهم، كأن حدثًا عابرًا كان وقع له قبل فراقهم جعله يتخيّل حياة الصحراء كما وصفها لهم يوم رحيله.

وهو بهذا قاصدًا أو غير قاصد ينتصف للذئب من العرب كلهم[1]؛ فإنهم منذ نشأة لغتهم لا يتصوّرون الذئب إلا خسيسًا خبيثًا عادِيًا جائرًا، ولا يُتوقع منهم غير ذلك، لعدوه على غنمهم، أما الشنفرى فمخالطته إياه عرّفته به حتى استحق منه هذه المشاعر النبيلة التي تَنْبِضُ بها أبياته، والتي تستقر في قلب السامع دون مقاومة.

توالي النعم

٣٧- وَتَشْرَبُ أَسْآري الْقَطا الْكُدْرُ بَعْدَما
سَرَتْ قَرَبًا أَحْناؤُها تَتَصَلْصَلُ[2]

(١) فنحن حتى الآن برغم المدنية والتطور نكره الذئب، ونصفه بصفاته القديمة في اللغة، وإن لم ننكر قوته حتى صار كل مغتصب ذئبًا، وهي صورة نشأت مع نشأة اللغة، ولا يمكن التخلص منها تخلصًا تامًّا، ولا بأس.

(٢) **أسآر**: جمع سؤر وهو ما بقي من الماء بعد الشرب، **القطا**: نوع من الطيور، **الكدر**: لونها ما بين الرمادي والأسود، **سرت**: سارت ليلا، **قربًا**: أن يكون بينك وبين الماء مسير ليلة، **أحناؤها**: جوانبها، **تتصلصل**: تصدر صوت صلصلة.

استقام فكر الشنفرى بهذه الفيئة التي جددت إيمانه فاستقام في نظره كل ما حوله؛ فإن يكن قد مُنع الطعام فإنه قد أُعطي الكثير، أُعطي الماء الوفير والصحة والقوة والعزيمة؛ فانطلق يصف بعض هذه النعم بأسلوب مختلف تمامًا عن أسلوبه السابق بسبب اختلاف حالته وتغيُّر نظرته، ولم يحد في سبيل هذا عن سياقه الذي اختاره، بل اكتفى بتغيير الأسلوب.

كان الشنفرى قد بدأ بذكر القوت، وأن ليس أمامه في هذه البيئة إلا أن يصبر على ندرة الطعام، مضطرًّا حينًا ومختارًا أحيانًا، فماذا عن الماء؟

يوحي هذا البيت أنه استقر في مكان قريب إلى حد ما من الماء، فشرب ورويَ قبل وصول القطا التي طارت طوال الليل حتى تصل إلى ذلك الماء نفسه، وكانت من شدة العطش تجد لأمعائها صلصلة.

لقد زَهَدَ الشنفرى في كل ما يربطه بالناس منذ تركهم، ومنذ ترك على راحلته كل ما حمله من ماضيه، فلم يحمل معه قِرْبةً أو وَطْبًا، ولا ندم فَحاولَ بعد ذلك جلب قربة من أيّ مجتمع بشريّ قريب، بل ارتاح لحياة الصحراء، وعاشها كاملة كما يعيشها شركاؤه فيها.

٣٨- هَمَمْتُ وَهَمَّتْ وَابْتَدَرْنا وَأَسْدَلَتْ
وَشَــمَّــرَ مِــنّــي فــــارِطٌ مُــتَــمَــهِّــلُ [١]

بدأ الشنفرى إذن في البيت السابق القصة من نهايتها، والآن يروي كيف بدأت، لقد كان قريبًا من سِرب القطا؛ إذ كان السرب يستريح في طريقه إلى الماء، فلمّا رأى مُنصرَفه إلى الماء أسرع ليصحبه فجرى بإزائه حتى تعب السرب[٢]، فسبق الشنفرى، وتركه يرتاح مرة أخرى، وكان برغم إسراعه متمهلًا.

لم يستقر إذن في مكان قريب من الماء، ولم يرد أن يوهمنا بذلك، لكنه كره أن يذكر بُعده عن الماء بعقب كلامه عن ندرة الطعام فيُظنّ فيه أنه شكوى.

ولم يخفَ على الشنفرى ما في تشبيهه نفسه بالذئب من اعتراف ضمنيٍّ بأنّ الذئب يَفوقُه، وهذا الأصل في التشبيه، إلحاق الأدني بالأعلى، لكنه ليس الأدنى دائما في هذه البيئة، بل بينه وبين أهلها من التفاوت مثل ما بين أفراد كل مجتمع، فإن نزل عن الذئب

---

(١) **هممت**: عزمت، **ابتدرنا**: أسرعنا، **أسدلت**: أرخت أجنحتها، **وشمر**: جمع ثوبه، **فارط**: متقدم.

(٢) لا تظن أن ذكره همّه قبل همِّ القطا دليل على الترتيب؛ فالأصل في الواو أنها لا تدل عليه، وسياق الأبيات يدل على إرادته صحبتها، ولو أراد الترتيب لكان يعني أنه أفزعها عن مستراحها؛ فإن كان فستفزع حينا، ثم تهدأ، وتعود لما كانت فيه، والسرب غير العاقل لن يسعى لصحبة المنفرد العاقل .

بمقاييسها أو شابهه في أحسن الأحوال فإنه هنا يرقى القطا، ويفوقها بلا جدال.

لكنه في الوقت نفسه لا يفخر، بل يصف ما حدث كما حدث، فقد همّا معًا، لكنها كانت تطير طوال الليل، أما هو فلا نعرف متى بدأ رحلتَه، ولا نعرف حالته بدقة عندما بدأ، ثم إن رحلتهما معًا بدأتْ قبل مرحلتين فقط من الماء بمقاييس القطا هذه المرة؛ فقد أسدلتْ لترتاح فتركها الشنفرى وانصرف، فكان وصوله ووروده وراحته مقدار ما ارتاحت هي وأكملت، وإعياؤها الشديد وراحتها المتكررة دليل على طول رحلتها ومشقّتها.

فليس سباقًا، ولا منافسة، ولا فخرًا، لكنّه حدثٌ عارض أظهر به الشنفرى التفاوت بينه وبين شركائه، وهذا التفاوت بلا شك ليس بنسبة ثابتة دائمًا، لكنه يختلف بحسب ظروف كل فئة، وهذه الظروف تعتمد على عوامل كثيرة ودقيقة لا يمكن حسابها، ولكنها تُقبل على حالتها دون تدقيق.

٣٩- فَوَلَّيْتُ عَنْها وَهْـيَ تَكْبو لِعَقْرِهِ
يُـبـاشِـرُهُ مِنْها ذُقـونٌ وَحَـوْصَـلُ[١]

(١) ولّى: انصرف، تكبو: تسقط، عقر: الفرجة بين الشيئين، يباشره: يلامسه، حوصل: جمع حوصلة وهي معدة الطائر.

لم يصحب الشنفرى القطا لتدلّه على الماء، لأنها لمّا ارتاحت أكمل طريقه سريعًا لم يتلجلج، فشرب حصته التي تكفيه يومًا أو نصف يوم كما يفعل بعض شركائه، ولم يكن عطشه شديدًا لأنه جاراها مرحلة كاملة مع قدرته على فَوتها، ثمّ لمّا أسدلت لترتاح قرر أن يسبقها، ربما ليروي عطشه، وربما ليعود قبل ارتفاع الشمس أو لتوفير وقته، ومن كان ذا حزم وتدبير كان ضنينًا بوقته، فإن كان فقد حصل على حصة تكفيه ألا يعود إلى الماء قبل الغروب على الأقل.

وكما يَضِنّ بالوقت يَضِنّ بموارد بيئته ويَربأ بنفسه عن الجشع؛ فلم يسعَ لاصطياد قطاة أو أكثر، لأنه في ذلك الوقت لم يكن في حاجة إليها، ولم يسمح لظروف بيئته القاسية أن تؤثّر على أخلاقه التي ارتضاها لنفسه؛ فانصرف عن الماء أثناء وصولها ومباشرتها الماء بذقونها ومقدمات صدورها، وهو أفضل وقت لصيدها.

٤٠- كَأَنَّ وَغاها حَجْرَتَيْهِ وَحَوْلَهُ
أَضامِيمُ مِنْ سَفْرِ الْقَبائِلِ نُزَّلُ[(١)]

(١) **وغاها**: أصواتها، **حجرتاه**: ناحيتاه، **أضاميم**: جماعات، **سفر**: مسافرون، **نزل**: نازلون. =

٤١- تَوافَيْنَ مِـنْ شَتّى إلَـيْـهِ فَضَمَّها
كَما ضَـمَّ أَذْوادَ الْأَصـاريـمِ مَنْهَلُ[(١)]

تساقطت القطا على الماء سريعًا قبل انصراف الشنفرى، ومضى يمشي فكانت أصواتها عند جانبي الماء وحوله صاخبة كأصوات مسافرين من قبائل كانوا نزلوا قريبًا من الماء، ثم جاءت جماعة من كل قبيلة إلى الماء؛ فكانوا حوله كأذواد الأصاريم حول الحوض.

الشنفرى يشبه كل ذئب، والقطا تشبه الناس، والناس تشبه الإبل، الفرد يشبه الفرد، والجماعة تشبه الجماعة؛ فهذا إذن أثر هذه البيئة على كل مُستوطِن أو مارٍّ، وهو ما افتقدته الاجتماعات الإنسانية.

٤٢- فَعَبَّتْ غِشاشًا ثُـمَّ مَـرَّتْ كَأَنَّها
مَعَ الصُّبْحِ رَكْـبٌ مِنْ أُحاظَةَ مُجْفِلُ[(٢)]

لم يتوقف الشنفرى عن متابعتها بعد صدوره عن الماء، ولم

= مِن الدارسين مَن ظنّ خطأً أنه شبّه صوتها بجوانب الماء، ولا يمكن ذلك، لأن خبر كأن (أضاميم) و(حجرتيه) ظرف.

(١) **توافين**: تجمّعن، **شتى**: أماكن مختلفة، **أذواد**: مجموعات صغيرة من الإبل، المجموعة لا تزيد على العشرة، **أصاريم**: مجموعات من الإبل كل مجموعة أكثر من عشرين، **المنهل**: عين الماء. ظن بعض من تعرض للقصيدة أن الضمير في (توافين) يعود على القطا، وهو خطأ.

(٢) **عبّت**: تابعت جرع الماء (صبّه صبّا في الحلق)، **غشاشًا**: مسرعة، **الصبح**: الفجر، **أحاظة**: قبيلة، **مجفل**: مسرع.

يتجاهل أصواتها أو ينشغل عنها، بل ظل مشغولا بها، وظل أثرها يعمل في خياله، ويستدعي المواقف والصور التي تشبهها، برغم أنه لم يصحبها وقتًا طويلا، لكنه لا ينسى؛ فنفسه المرّة ساعة الشدة ألوفٌ ساعة الأمن واللّين، ثم نظر فرآها كما أشبهت البشر والإبل في ورودها تشبههم جميعًا معًا في صدورها[1].

لم يكن فراقها سهلًا؛ لقد شعر أن الوقت مضى سريعًا، صحبة ففرقة، بهجة فألم، نجاح فخيبة، حياته هي الحياة أينما ذهب.

معاناة أخرى

٤٣- وَآلَفُ وَجْهَ الْأَرْضِ عِنْدَ افْتِراشِها
بِأَهْدَأَ تُنْبيهِ سَناسِنُ قُحَّلُ[2]

ليست حاجات الشنفرى اليسيرة في هذه البيئة البسيطة برغم قسوتها قوتًا وماءً فقط، بل يحتاج أيضًا إلى نوم، هذه الثلاثُ حاجاتُه الرئيسةُ هنا، ولا حاجة له سواها، وقد رتّب الشنفرى

(١) لا تنس مقارنة أسلوبه في هذا البيت بأسلوبه في البيتين السادس والعشرين والثالث والثلاثين، وفي سبيل المقارنة راجع ما قبل هذا وما قبل كلٍّ من البيتين الآخرين.

(٢) **الأهدأ**: المَنْكِب المنحني، **تنبيه**: ترفعه، **سناسن**: حروف فقار الظهر، **قحل**: يابسة. ربما كان في تعبيره عن ظهره بالأهدأ ما يدل على طوله مع هزاله، فإن كان الانحناء قديمًا فإنه دليل أيضًا على قلة اكتراثه لرأي الناس، وربما لكثرة إطراقه وتفكيره.

حاجاته بحسب أهميتها بالنسبة له، لا بحسب زمان سعيه عليها، ولا بحسب يُسر تحصيلها أو عسره؛ فإنه يسعى على القوت غدوةً، ويَرِدُ الماء سَحَرًا[1]، ويحاول النوم ضحًى[2].

كان قد أَلِفَ القطا سريعًا ولم يصرّح، ولكنه الآن يصرّح بإِلْفِهِ افتراش وجه الأرض؛ تَخَفَّفَ من كل شيء، وأخذ نفسه بالزهد في كل ما يأتي من البشر؛ فكان فراشه وجه الأرض دون حائل.

اختار الشنفرى وقت الضحى للراحة، كما يفعل معظم شركائه؛ فينام إذا بدأ اشتداد الحر، ثم يستيقظ عصرًا أو قبل العصر بقليل.

أراد النوم فاستلقى على ظهر لم يترك الجوع فيه إلا عظامًا ناتئة بارزة جافّة، لا تجد للأرض ألما بعد أن اعتادتها، لكنْ هل يغلِبه النوم؟

٤٤- وَأَعْدِلُ مَنْحوضًا كَأَنَّ فُصوصَهُ
كِعابٌ دَحاها لاعِبٌ فَهْيَ مُثَّلُ[3]

لم تتركه همومه، فانقلب على جنبه، وتوسّد ذراعه، وهي ذراع ناحلة معروقة تَبْرُز مفاصلها كأنها فصوص نرد ملقاة، فهل نام؟

---

(١) لأن القطا مرّت مع الصبح، راجع البيت السابق.

(٢) بنينا هذا على تأويلنا للبيت الخمسين؛ حيث قال (ضاحيًا).

(٣) **أعدل**: أسوّي، **منحوضًا**: ذهب لحمه (يقصد ذراعه)، **فصوصه**: مفاصله، **كعاب**: فصوص النرد، **دحاها**: أرسلها أو ألقاها، **مُثّل**: قائمة.

سخرية مؤلمة

٤٥- فَـإِنْ تَبْتَئِسْ بِالشَّنْفَرى أُمُّ قَسْطَلٍ
فَما اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرى قَبْلُ أَطْـوَلُ[(١)]

لا، لم ينم، بل استدرجته شاعريته إلى السخرية؛ فإنه كان يجد ألمًا مزعجًا في البداية بسبب انضغاط جلده بين عظامه والأرض اليابستين، لكنه صبر وتحمّل حتى اعتاده، ثم ذهب الألم، فإن يكن الألم قد ذهب فلمَ لم ينم حتى الآن؟

يسخر الشنفرى من معاناته؛ فإن كان وخز عظامه الناتئة اليابسة يزعج الأرض[(٢)] إن نام على ظهره أو على جنبه فإنه كان دائما كذلك، فما الجديد؟

٤٦- طَرِيدُ جِناياتٍ تَياسَرْنَ لَحْمَهُ
عَـقـيـرَتُـهُ لِأَيِّـهـا حُـمَّ أَوَّلُ[(٣)]

الحقيقة لا جديد، فهو طريد جنايات؛ اعتاد بسبب مطاردته واتريه أو مطاردة موتوريه له أن ينام على الأرض، وكان نحيلًا

(١) **تبتئس**: تحزن أو تشتكي، **القسطل**: الغبار، **وأم قسطل**: الأرض، **اغتبطت**: فرحت، لم أنتبه أول الأمر لسخرية الشنفرى ففسرتُ أم قسطل بتفسير مَن سبقني، ثم تبيّنتُ فرجعتُ.

(٢) سيؤكد هذا المعنى بالبيت الثامن والأربعين.

(٣) **تياسرن**: اقتسمن، **العقيرة**: صيحته عند مقتله، **حُمّ**: نزل أو وصل.

دائمًا، لأن مطاردة جناياته له قد أكلت لحمه فلم تترك له منه شيئًا، وغدًا تكون عقيرته لأول موتور يصل إليه.

٤٧- تَبيتُ إِذا ما نامَ يَقْظى عُيونُها
حِثاثًا إِلى مَكْروهِهِ تَتَغَلْغَلُ[١]

فهم أقوام لا ينامون عن أوتارهم، بل تراهم يحثّ بعضهم بعضًا ليُسرع إليه فإن لم يقتله فليس أقل من أن يصيبه بما يكره.

هزائم متجددة

٤٨- وَإِلْفُ هُمومٍ ما تَزالُ تَعودُهُ
عِيادًا كَحُمّى الرِّبْعِ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ[٢]

وكما ألف وجه الأرض حتى انتهى ألمه فلم يعد يزعجه ألفتْه الهموم حتى لم يعد هو أيضًا قادرًا على إزعاجها وصرفها عنه، ثم كما تبتئس الأرض بعظامه يبتئس بهمومه الثقيلة؛ فهي تعتاده من وقت لآخر؛ لا تتركه ينام كما تفعل حُمّى الرِّبع بالمريض، بل هذه الهموم أثقل من تلك الحمى، لقد أراد قطع

---

(١) **حثاثًا**: يحث بعضهم بعضا، **تتغلغل**: تسرع.

(٢) **إلف**: صاحب أو رفيق، **حمى الربع**: حمى تعاود من وقت لآخر. للمرة الثانية بعد قصته مع القطا يذكر الإلف، كأنها ذكرته في وحشته به؛ فالفارق الزمني بين أبياته عن القطا وبين هذه الأبيات قصير، ربما قصير جدًّا.

علاقته بالماضي كله، لكن الماضي لا يتركه، وسيصحبه بالرغم منه حتى يقتله[1].

٤٩- إِذا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُها ثُمَّ إِنَّها
تَثوبُ فَتَأْتي مِنْ تُحَيْتُ وَمِنْ عَلُ[2]

تياسرت الجنايات لحمه، وستفوز إحداها بعقيرته، وحتى تصل إليه إحدى جناياته التي تسعى للنيل منه سعيًا حثيثًا تهوي عليه همومه التي ألفته كما ألف وجه الأرض لتشرب من دمه، فيجهد في صرفها وإصدارها فتتسرب إليه من فوقه ومن تحته، فإن يكن قد انتصر على الجوع وذكراه فإن الهموم تهزمه في كل مرة، ولا يجد مخلَصًا فيقوم ليبحث عن أي شيء ويترك النوم[3].

---

(١) قد يظن بعض القراء أن ذكره الهموم بعقب ذكره جناياته دليل على شعوره بالذنب، لكنه ليس كذلك بدليل قصة الانتقام التي سيرويها بعد قليل.

(٢) **وردت**: جاءت لتشرب، **أصدرتها**: صرفتها عن الشرب، **تثوب**: تعود.

(٣) باختصار شديد جدًّا: يرى أبو فهر محمود محمد شاكر رحمه الله أن الشعر والبيان هو الفن الأعلى وما سواهما من الفنون هي الفنون الدنيا، وليس هذا على سبيل البخس والامتهان، بل لأن أدوات الفنون جميعًا سوى الشعر والبيان مجتلبة من خارج الإنسان، والإنسان هو ينبوع الفن، ومادة الفنون جميعًا سوى مادة الشعر والبيان ميتة غير نامية بخلاف اللغة فإنها مادة حية نامية، وأنّ التفاضل بين الفنون يأتي من الصلة بين الفن وأداته وبين الأداة وينبوع الفن. (راجع رأيه كاملا في كتابه نمط صعب ونمط مخيف، ص ١٧٠، ١٧١) وهذه القصيدة برهان على سداد رأي أبي فهر؛ فكيف كان للشنفرى في تلك الظروف الشديدة أن يُعبّر عن نفسه أوفى تعبير وأكمله وأن يبقى تعبيره خالدًا على مرّ القرون الطويلة لا تصيبه الأعطاب ولا تذهب به الخطوب بل يزيد على الدهر حُسْنًا وبهاء وجلالًا!

برغم أن النوم حاجة إنسانية بسيطة، لكنها تمتنع عليه مدّة حتى إذا أرهقه التعب نام، فيكون نومه إذا تعب كنوم المحموم إذا تركته الحمى.

مناجاة كاشفة

٥٠- فَإِمّا تَرَيْني يابْنَةَ الرَّمْلِ ضاحِيًا
عَلى رِقَّةٍ أَحْفى وَلا أَتَنَعَّلُ[١]

ليست أول مرة تُطْبق عليه الهموم إذا حاول النوم، وهو ضنين بوقته أن يضيعه في محاولات يعرف أن نهايتها الفشل، فقام من رقاده يمشي في الصحراء بملابسه الممزقة حافيًا؛ إذ زهد في التَّنَعُّل، فرأى حيّة على الرمل، وكان اعتاد أن يُؤَمِّنَ هذه المخلوقات، ليأمنها ويعيشَ بينها كأنه واحد منها، ونجح[٢]، وفي ظنّه أن أوضح ما تراه

(١) **ابنة الرمل**: الحية، **ضاحيًا**: سائرا وقت الضحى قبيل اشتداد الحر، **رقة**: فقر، **أحفى**: لا أتنعل.

(٢) ويبدو أن هذا كان أمرًا مألوفًا لأولئك الذين يكثرون قطع القفار أو يعملون في الرعي، يؤكد ذلك ما نُسب إلى أبي حيان الفقعسي، وقيل: مساور بن هند العنسي: قَدْ سالَمَ الحَيّاتُ مِنْهُ القَدَما/ الأُفْعُوانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَما/ وذاتَ قَرنَيْنِ ضَمُوزاً ضِرْزَما. ويزيد هذا المعنى وضوحًا ما علق به أبو السامي مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله، وغفر له!- في الهامش على مقالة (المجنون ٥) في كتابه وحي القلم، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٥، ص ٧٢٩، فقال: «رَوَتِ الصُّحفُ في هذه الأيام قصة حاكم إنجليزي كان قد اقتنص ذئبًا هنغاريًا وشدَّه في سلسلة وجعله في حديقة داره إلى أن يرى فيه رأيًا، وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئبُ ومنظرُه الوحشيُّ فتربص إلى الليل، فلما استثقل أهله نومًا انسلَّ من حجرته وهبط الحديقةَ وجاء إلى الذئب فوثَبَ هذا يتحفّز لافتراسه،=

الحية منه قدماه لأنهما بإزائها، وهذا الحفاء دليل فقر، فبدأ حديثه معها من حيث انتهت هي في ظنه، لكنه لن يتحدث عن نفسه الآن فقط، بل سيتحدث عن نفسه منذ وعى: فإن كنتِ ترينني حافيًا فقيرًا في ثياب ممزقة[١]...

٥١- فَإِنّي لَمَوْلى الصَّبْرِ أَجْتابُ بَزَّهُ
عَلى مِثْلِ قَلْبِ السِّمْعِ وَالْحَزْمَ أَنْعَلُ[٢]

فإني ولي الصبر، وملابسي الممزقة التي ترينها دليلُ صبري الجميل؛ فهي ملابسه، على قلب جريء لا يظهر لكِ، أَصِلُ إلى غاياتي بالحزم؛ فيكفيني عن أي نعل[٣].

٥٢- وَأُعْـــدِمُ أَحْيانًا وَأَغْـنـى وَإِنَّما
يَنالُ الْغِنى ذو الْـبُـعْـدَةِ الْـمُـتَـبَـذِّلُ[٤]

= ولكنَّ الطفل لم يدرك شيئًا من معنى هذه الوحشية، ولم يكن في نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك، ومضى إلى الوحش مسرورًا مطمئنًا فتناولَه من شعره وجعل يمسحه بيديه الصغيرتين ويعبث به، والذئب مدهوش ذاهل، ثم سكن واستأنس إليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدميٍّ، وجذبَهُ الطفل من رقبته حتى أضجعَهُ ثم اتَّخذَهُ وسادةً ووضع رأسه على ظهره ونام، وافتقدتِ الطفلَ مربيتُه فلم تجده في فراشه، فنبَّهتْ أهلَه وذهبوا يبحثون عنه في غرف الدار، ثم نزلوا إلى الحديقة فبَصُروا به نائمًا ورأسُه على الذئب، وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكي على صديقه الوفيِّ...»

(١) سيذكرها في بيت تالٍ.

(٢) **مولى الصبر**: وليه وصاحبه، **أجتاب**: ألبس، **بزّه**: ملابسه، **السمع**: ابن الذئب من الضبع.

(٣) لم يقصد تحقير الحزم.

(٤) **ذو البعدة**: المبتعد في الأمر، **المتبذل**: الذي يهين نفسه.

وأنا منذ كنتُ أتقلب بين الغنى والعُدم، لأن الغنى الكامل الدائم لا يناله إلا من لا كرامة له أو مروءة.

والشنفرى هنا يوازن بين الغنى والعُدم، لا بين الغنى والفقر، لأن الغنى بالنسبة له ليس كثرة المال، بل أن يكون عنده ما يكفيه؛ فما يراه الناس فقرًا أو ما يقرب منه هو في نظره غنى طالما أنه يكفيه، أما الغنى الذي يعهدونه فهذا لا يكون لمثله.

٥٣- فَـلا جَــزِعٌ مِــنْ خَـلَّـةٍ مُتَكَشِّفٌ
وَلا مَــرِحٌ تَـحْـتَ الْغِنى أَتَـخَـيَّـلُ[(١)]

فليس يجزع لفقر شديد ألمّ به فيذهب يتشكى للناس، وليس من طباعه الفرح والمباهاة إذا اغتنى، لأن الإنسان ليس بغناه أو بفقره، والغنى والفقر لا يغيّران حقيقته، وهو هنا يوازن بين أخلاقه وأخلاق غيره؛ فهذه الصور التي تقابل صورته صور أفراد من قومه الذين ارتحل عنهم، ومنهم رؤوس قومه، فصورهم في ذهنه دائمًا، لا ينساهم ولا ينسى أخلاقهم الذميمة وكرهه الشديد لهذه الأخلاق[(٢)].

---

(١) **الجزع**: ضد الصابر، **الخلة**: الحاجة والعُدم، **متكشف**: متشكي، **أتخيل**: أتباهى.

(٢) وفي البيت التالي دليل على ذلك كنّا أشرنا إليه عند شرحنا البيت السادس، ولا تكون الموازنة إلا بين الأنداد، وقد يكون السعي لنفي هذه الصفات لأنها في أقارب له؛ فظنُّ غيرِه أنها فيه بالوراثة أقوى، فيحتاج إلى النفي.

٥٤- وَلا تَزْدَهي الْأَجْهالُ حِلْمي وَلا أُرى
سَؤولًا بِأَعْقابِ الْأَقاويلِ أُنْمِلُ (١)

وصبر الشنفرى طبيعة فيه؛ فكما يصبر على الشدة يصبر على الجهل، وكما يزهد في أعراض الحياة الزائلة يزهد في أخبار الناس، وهو بهذا يختلف تمامًا عن ذلك الذي وصفه عند رحيله.

ومن عجب أن ذلك المجترئ كان لا يصبر على شهوة أو شدة، لكنه كان إن حدّثه أحدٌ صبر حتى أخرج ما عنده، ثم يسأله ليستقصي كل معارفه عن الناس، وكان ملحاحا كثير السؤال.

غارة خاطفة

٥٥- وَلَيْلَةِ نَحسٍ يَصْطَلي الْقَوْسَ رَبُّها
وَأَقْطُعَهُ اللّاتي بِها يَتَنَبَّلُ (٢)

(١) **تزدهي**: تستخف، **الأجهال**: الجُهّال، **سؤولا**: كثير السؤال، **بأعقاب**: بَعْدَ نهايات، **أنمل**: أنمّ (أفعل النميمة). ويرى الشراح والدارسون أن الأجهال جمع شاذ لـ (الجَهْل)، وأرى أن الأَولى أن يكون جمعًا شاذًّا للجاهل؛ فكما يعبر العرب عن (كثّر) بـ (أكثر) وما شابهها فك الشنفرى التضعيف وزاد الألف، وإن فعلها في اسم؛ فهذا شذوذ أقرب إلى قياس، وهو الأَولى في رأيي.

(٢) **النحس**: شدة الظلمة وشدة البرد، **يصطلي القوس**: يلقيها في النار طلبا للدفء، **ربها**: صاحبها، **أقطعه**: سهامه، **يتنبل**: يرمي.

انتهى حديث الشنفرى إلى الحيّة[١]، وانتهى قبله شرحه لحاجاته الأساسية وكيف يصل إليها، لكن قيود الإنسان ليست في حاجاته التي تفرضها عليه طبيعته فقط، فإن طبيعته جزء من طبيعة بيئة أقوى تشمله، وهذه البيئة تقيّد مستوطنها بظروفها التي تقهره، وتضطره إلى ما لا يطلب.

فأمّا حاجات الشنفرى التي لا سبيل إلى الحياة دونها فإنه يسعى على ما يبقيه حيًّا منها دون أن يقع تحت سيطرتها، وقد أرانا، وأمّا ظروف البيئة فإنها لا تخضعه، ولا تلجئه إلى ما يكره، بل يعتاد عليها حتى تصير في أسوأ حالاتها مقبولة لا تؤثر عليه، ويواجهها إن لم يكن من مواجهتها بد.

لا يعبأ الشنفرى بالصغائر، ولا يتشكّى، لكنه يتسلّى في انفراده بتسجيل ما يمر به في حياته، ويرسم الطريق لكل من يأبى الضيم، ومشكلات بيئته الآن الكبرى التي تستحق التسجيل مناخها المتطرف وطبيعة أرضها وقد تقاطعت مع سعيه على حاجاته، لكنها لا تزال تحتاج إلى توضيح.

يبدأ بأشد ظروف الصحراء عليه، بالبرد القارس في الليالي

---

(١) انتبهنا إلى أنه لما تكلم إليها تكلم عن أخلاقه وطباعه عامة منذ وعى إلى الآن، لكنه الآن سيتكلم عن مواجهته ظروف الصحراء فقط.

المظلمة؛ حيث لا كساء يكفيه، ولا بيت يحميه، ولا ضوء يسلّيه.

فيختار هذه الليلة المظلمة القارسة البرد لدرجة أن لو انفرد فيها رجلٌ ما، معه قوس وسهام، وكان في حاجة إليهما للصيد أو الحرب لَفَضّل أن يصطلي بهما ليتقي شدة البرد، والقوس هي الصاحبة المألوفة، والتي يهتم بها فيزينها، لكنها ليست أحب إليه من نفسه.

٥٦- دَعَسْتُ عَلى غَطْشٍ وَبَغْشٍ وَصُحْبَتي
سُعارٌ وَإِرْزيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ[١]

هذه الليلة تشمل أعداءه كما تشمله، وهي أفضل الأوقات للغارة السريعة الخاطفة؛ فشدة البرد تفرغ له السبل، والظلمة تؤمّنها له، فسار إليهم في مطر غير شديد جائعًا كعادته، يرتعد جسمه من البرد القارس، ويخشى ما يستره الظلامُ عنه.

٥٧- فَأَيَّمْتُ نِسْوانًا وَأَيْتَمْتُ إِلْدَةً
وَعُدْتُ كَما أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلْيَلُ[٢]

فقتل مَنْ قتل ، وعاد سريعًا، وكانت المسافة طويلة، لكنه لسرعته وحزمه عاد قبل الصبح.

---

(١) **دعستُ**: دُسْتُ أو وطئت بشدة، **غطش**: ظلمة، **بغش**: مطر ليس شديدًا، **سعار**: جوع شديد، **إرزيز**: شعور بالبرد الشديد، **وجر**: خوف، **أفكل**: ارتعاد.

(٢) **أيمتُ نسوانًا**: قتلت زَوْجَهُنّ، **إلدة**: أولاد، **أليل**: مظلم.

٥٨- وَأَصْبَحَ عَنّي بِالْغُمَيْصاءِ جالِسًا
فَـريـقـانِ مَـسْـؤولٌ وَآخَـــرُ يَـسْــأَلُ[(١)]

فلم يطلع الصبح على البلد التي نكبها إلا والناس فريقان، فريق كان قريبًا من مكان الغارة، وفريق آخر يسأله عما سمع أو رأى[(٢)].

٥٩- فَقالوا لَقَدْ هَـرَّتْ بِلَيْلٍ كِلابُنا
فَقُلْنا أَذِئْــبٌ عَـسَّ أَمْ عَـسَّ فُـرْعُـلُ[(٣)]

٦٠- فَـلَـمْ يَـكُ إِلّا نَـبْـأَةٌ ثُـمَّ هَـوَّمَـتْ
فَقُلْنا قَـطـاةٌ ريـعَ أَمْ ريـعَ أَجْــدَلُ[(٤)]

---

(١) **أصبح**: طلع عليهم الصباح، **الغميصاء**: موضع في بادية العرب قرب مكة.

(٢) ظن من تعرض لهذه القصيدة من الشراح والدارسين أن (جالسًا) حال من (جَلَسَ) إذا أتى (الجَلْس)، وهي نجد، وسبب ذلك أن جالسًا حالٌ واحدٍ، فتشعبت بهم التفسيرات والظنون، وليس الأمر كذلك، وقد ورد عن العرب الاكتفاء بالواحد عن الاثنين؛ وأرى أنه أراد أن الفريقين كانا جالسين يتحدثان ويتدبران، ويُظنّ أيضًا أن (أصبح) قد يكون ناقصًا، وليس كذلك، بل يرتب الأحداث بعضها على بعض ترتيبًا زمنيًّا، ويرسم صورته الكاملة كما اعتاد؛ فجعلها لا تخلو من زمان ومكان وحوار محدد على هيئة محددة بين فريقين منقسمين إلى من يعلم شيئًا ومن يجهل كل شيء.

(٣) **هرير الكلب**: صوت أقل من النّباح، **عسّ**: طاف ليلًا، **الفرعل**: ولد الضبع.

(٤) **نبأة**: صرخة أو صيحة، **هوّمت**: نامت، **قطاة**: طائر، **ريع**: خاف وكان يجب أن يقول: ريعت، **أجدل**: صقر. يرى الشراح والدارسون أن المقصود بـ (هومت) لم تتكرر، ولكنني أظن أن الضمير فيه يعود على رؤوس السامعين؛ فإنهم انتبهوا للصوت، ثم أخذهم النوم، فكأنهم يعتذرون عن أنهم لم يحاولوا معرفة مصدر الصوت أو سببه بأن صرخة واحدة لم تكن كافية لإيقاظهم، والتهويم لا يكون إلا للرؤوس. وقد ظن الشراح والدارسون أيضًا أن المقصود بالنبأة هرير الكلب، وهذا خطأ، ولو كان كما فهموا لما شبّه الجيران هرير الكلب بصيحة القطا أو الضبع، بل شبّهوا بها شيئًا آخر كما في الشرح، ثم هي نبأة واحدة لقتيل واحد، وليس لقتلى كثيرين كما ظن مَن تعرض للقصيدة؛ حيث غرّهم قوله: (نسوانا) و(إلدة).

٦١- فَـإِنْ يَـكُ مِـنْ جِـنٍّ لَأَبْــرَحُ طارِقًا
وَإِنْ يَكُ إِنْسًا ما كَها الْإِنْــسُ تَفْعَلُ(١)

أمّا السؤال فمعروف، لكن غير المعروف إجابة الجيران، لحرص الشنفرى على إخفاء آثاره عن الناس جميعًا، ولو لم يكونوا إلا سامعين مُسْتَقْبَلِيّين لقصيدته.

لقد مرّ الشنفرى بدورهم فهرّت كلابهم، لكنه مرّ سريعًا(٢)، ووجد سبيله إلى داخل الدار المقصودة بسرعة، فضرب ضربته القاتلة، فصاح القتيل صيحته الأولى والأخيرة فسمعها الجيران، فلمّا لم تتكرر خالها السامعون صيحة قطاة أو فرعل، وهذا ما سهّل على الشنفرى رجوعه، فخرج مسرعًا قبل أن يصل إلى القتيل أحد من أهله، وكان يعلم أن الجيران سمعوا الكلاب أول مرة، ففرَّ من طريق غير الذي جاء منه.

هذه معلوماتهم، وتقديرهم أن هذه الضربة الخاطفة التي قتلت رجلًا ربما كان بطلًا مهيبًا(٣)، في ذلك البرد القارس والليل المظلم والمطر المستمر، من قاتل لم تُخِفْهُ الكلاب بل أخافها أو لم تشعر به إلا قليلا، وكانت ضربته بذلك الإتقان -لا يمكن أن تكون من فعل إنسان بل هي فعل جنّيّ قدير.

---

(١) **لأبرح**: لهو أشد، **الطارق**: القادم ليلا، **كها**: كهذا.

(٢) لذلك استعمل الفاء في قوله: (فلم).

(٣) انتبهْ إلى أن ذلك القتيل كانت له نساء أيّمها الشنفرى، وقارنه بهذا الذي كان يلازم عرسه.

فالبرودة الشديدة والظلمة المدلهمّة والمطر والجوع والخوف لم تستطع أن تثني الشنفرى عن عزمه بل شدّت من أزره، وأخفت أثره، وسهّلت عليه عمله.

في الشمس الحارقة

٦٢- وَيَـوْمٍ مِنَ الشِّعْرى يَـذوبُ لُوابُهُ
أَفـاعـيـهِ فـي رَمْـضـائِـهِ تَـتَـمَـلْـمَـلُ (١)

فإن لم يَحُلِ البرد القارس بينه وبين انتقامه، فماذا عن شدة الحر؟ إنه في أشدّ أيام الصحراء حرًّا، حين لا تتحمل الحيّات التي اعتادت الحر الرمضاء، فلا تستطيع أن تستقر فيها كما اعتادت...

٦٣- نَصَبْتُ لَهُ وَجْهي وَلا كِنَّ دونَهُ
وَلا سِتْرَ إِلّا الْأَتْـحَـمِـيُّ الْمُرَعْبَلُ (٢)

٦٤- وَضافٍ إِذا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ طَيَّرَتْ
لَـبـائِـدَ عَـنْ أَعْـطـافِـهِ مـا تُـرَجَّـلُ (٣)

---

(١) **يوم من الشعرى**: يوم شديد الحر، **لوابه**: ما يراه السائر في الشمس من شدة الحر وركود الهواء كأنه خيوط العنكبوت، **في رمضائه**: حين يشتد وقع الشمس على الرمل وغيره، **تتململ**: لا تستقر.

(٢) **نصبت**: أقمتُ، **كِنّ**: ما يرد الحر، **الأتحمي**: نوع من البرود (ملبس أو كِساء)، **المرعبل**: ممزق.

(٣) **ضافٍ**: سابغ (يقصد شعره)، **لبائد**: شعر التصق بعضه ببعض، **أعطاف**: جوانب، **تُرجّل**: تُمَشّط.

يخرج إلى حاجاته وأغراضه كعادته، لا يستر وجهه عن الشمس شيء، ولا يردّ أشعتها عن جسده سوى ثوب خَلِقٍ بالٍ ممزّق وشعر طويل ملبّد لا يُمشّطه...

٦٥- بَعيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ وَالْفَلْيِ عَهْدُهُ
لَـهُ عَبَسٌ عـافٍ مِـنَ الْغُسْلِ مُـحْـوِلُ[(١)]

ولا يخلّله ولو بماء، أو ينقيه مما يصل إليه من حشرات، وتراكمت عليه الأوساخ لتوقّفه عن غسله منذ ترك قومه من عام أو يزيد.

لقد تخلّى عن كل الحاجات التي يمكنه أن يتخلّى عنها، ومن ذلك حاجته إلى النظافة، وزهد في كل ما يأتي من المجتمعات الإنسانية، ومن ذلك وسائل بسيطة كانوا يستعملونها لتنظيف رؤوسهم وأبدانهم وسترها، وربما لولا الحياء ما كان سيره إلا عاريًا كشركائه.

على الأرض الخالية

٦٦- وَخَـرْقٍ كَظَهْرِ التُّرْسِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ
بِعامِلَتَيْنِ ظَـهْـرُهُ لَـيْـسَ يُـعْـمَـلُ[(٢)]

---

(١) **الدهن**: ما يُدهن به الشعر ليسهل ترجيله، **الفلي**: استخراج القمل، **العبس**: الأوساخ العالقة، **عاف**: متروك، **محول**: مرّ عليه عام. وقد بنينا على هذه الكلمة أنه أكمل قصيدته بعد رحيله عن قومه بعام تقريبًا.

(٢) **الخرق**: الصحراء الواسعة، **كظهر الترس**: يقصد مستوية، **قفر**: فارغة، **العاملتين**: القدمين.

وهو كذلك لا يرهقه بُعد المسافات؛ فَرُبَّ أرض واسعة خالية مستوية، لا يستطيع كائن حيٌّ أن يقطعها سائرًا، وليس فيها ماء يَشرب منه، ولا جبل يَسْتظل به، ولا غار يأوي إليه، ولا عليه شيء يحميه من حرّ الشمس -رُبَّ أرض كهذه قطعها بقدميه الحافيتين.

٦٧- فَأَلْحَقْتُ أُولاهُ بِـأُخْـراهُ موفِيًا
عَلى قُـنَّـةٍ أُقْـعـي مِـــرارًا وَأَمْـثُـلُ[(١)]

فأسرع حتى انتهى من قطع ذلك الخرق كله، وكما يقطع الأراضي المستوية السهلة يتسلق الجبال حتى يصل إلى قممها، ومن هناك يراقب الطرق جالسًا حينًا، وقائمًا منتصبًا حينًا.

خاتمة مُرضية

٦٨- تَرودُ الْأَراوي الصُّحْمُ حَوْلي كَأَنَّها
عَـذارى عَلَيْهِنَّ الْـمُـلاءُ الْـمُـذَيَّـلُ[(٢)]

(١) **أولاه**: أول الخرق، **موفيًا**: مُتِمًّا، **القنة**: رأس الجبل، **أقعي**: أجلس جلسة معينة، **أمثل**: أقف منتصبًا. وقد ظن بعض من تعرض للقصيدة أن موفيا بمعنى مشرفًا، ولم يُرد الشنفرى إلا أن يؤكد اجتيازه الخرق تامًّا، وذكره جلوسه وانتصابه على رأس الجبل يغنيان عن ذكر الإشراف.

(٢) **ترود**: تذهب وتجيء، **الأراوي**: إناث الوعول البرية، **الصحم**: لونها رمادي قريب من السواد أو مختلط بسواد، **الملاء**: جمع مُلاءة وهي المِلحفة التي تلبسها الفتيات.

٦٩- وَيَـرْكُـدْنَ بِالْآصالِ حَوْلي كَأَنَّني
مِنَ الْعُصْمِ أَدْفى يَنْتَحي الْكِيحَ أَعْقَلُ(١)

ويطيل المكوث مراقبًا الطرق، فيشعر بالأراوي المحيطة به، فيُتبعها نظره، وتُذكّره في ذهابها وإيابها بصورة ما يفتقد في حياته، ويفتقد كل أمل له فيه، ثم تألفه الأراوي فتركد حوله كأنه ذَكَرُها الذي تجد الأمان في جواره والراحة في وجوده، فيَذكُر هذا الشعور اللطيف الذي انشغل عنه، فيتعزّى به ويأنس؛ وتختفي ثورته، ويغيب غيظه، وينسى همومه، ويركن لهذه الصورة الجميلة فيجعلها نهاية ملحمته العظيمة باعتبارها جائزة غير منتظرة تستحق الإبراز.

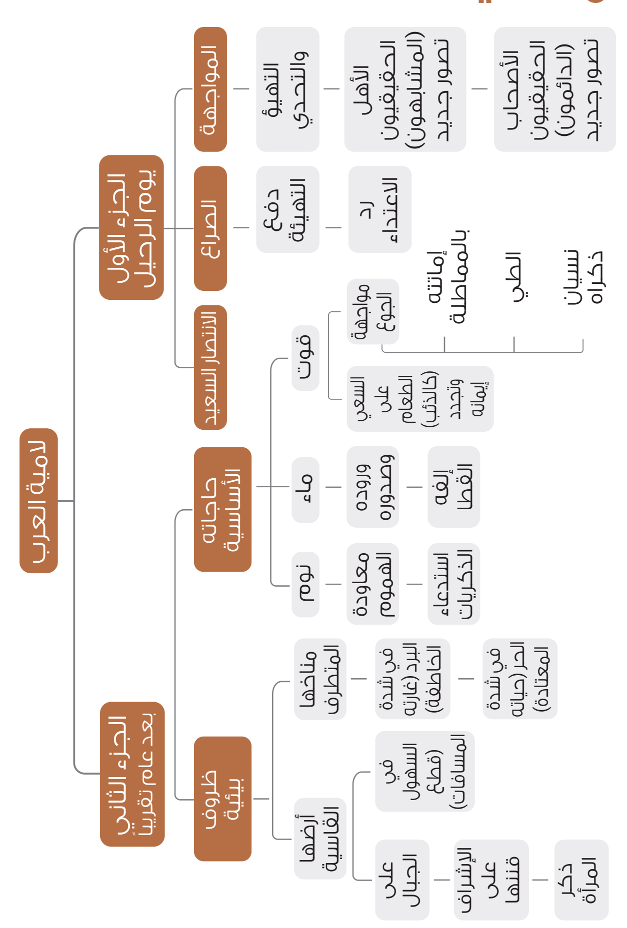
كانت نفسه المرة لا تصوّر له من حياة الصحراء إلا ما يحتوي غيظه الشديد من طراد وافتراس، فتَخيّلَ مخالطة الذئاب والضباع والنمور، ولم يذكر قط هذه الوعول الهادئة، وحسب أنه لن يحتاج إلا إلى ما يتقوّى به على الانتقام وعلى البقاء، ولم يظن أنه سيفتقد المرأة لتلك الدرجة التي يجد العزاء فيها في إلف الأراوي إياه، فقبل هدية الحياة، ورضي، وسعد؛ **إنه لم يطلب من الحياة أكثر من هذه**

(١) **يركدن**: يهدأْنَ ويسكنّ، **الآصال**: جمع أصيل وهو الوقت من العصر للمغرب، **العصم**: جمع الأعصم وهو الوعل الذي في ذراعيه بياض، **أدفى**: عظيم القرنين، **ينتحي**: يقصد، **الكيح**: الحرف الغليظ للجبل، **أعقل**: في معقل مرتفع.

الدعة المطمئنة التي أتته أخيرًا من حيث لم يحتسب، إنه لم يسعَ لمعاداة أحد، ولا كان يجد لذة في قتل الناس والاعتداء عليهم، إنه لم يطلب أكثر من هذا السلام الهادئ، لكنّ البشر لا يسالمون إلا مضطرين!

كانت مدة شديدة، لكنه كسب فيها نفسه، ولم يفقد شيئًا.

تلخيص اللامية





وبعد

فَلَمْ تخفَ على العربيّ القديم أغراضُ ابنِ جيله، ولا غابت عنه بواعثه، بل ألمّ بكلٍّ ما بها إلمامَ الرائي المجرّب؛ فإن الاختلافات اليسيرة بين روايات القصيدة المختلفة مع طولها وقِدَمِها[١]، ثُمّ إطلاق (لامية العرب) عليها دليلانِ على أنها كانت تعبر بدقة عن حال عدد كبير من أبناء ذلك الزمان البعيد، وكانوا يرون في فعل الشنفرى تحقيق حلم لا طاقة لهم بتحقيقه، فاعتنَوا بها، وحفظوها حتى قال قائلهم: علّموا أولادكم لامية العرب؛ فإنها تعلّمهم مكارم الأخلاق[٢]. وقد صدق.

لكن سيرة الشنفرى لم تجد مِن اهتمام الناس وعنايتهم مثل ما وجدت قصيدته، ومَن كان كالشنفرى لا تترك الأكاذيب سيرته لا في حياته ولا بعد موته، ولعلها اختلطت حينًا ببعض أخباره الصادقة فساعدت على ذيوع القصيدة وانتشارها، ثم وجد فيها أعداؤه مجالًا لتشويه صورته والانتقاص منه، وسارت بين الناس تحمل من هنا

(١) راجع د.أحمد درويش، في النقد التطبيقي، ص ٣٣، وقد اعتمد في المقابلات على تحقيق د. محمد إبراهيم حور لكتاب (أعجب العجب في شرح لامية العرب)، وليس عندنا، والعجيب أنه لم يُثبت **البيت المظلوم** في تلك المقابلة بالرغم من رواية الخالديين له، وقد قابل على روايتهما. وبخلاف ذلك تجد الاختلافات يسيرة هينة بين الروايات.

(٢) نُسبت هذه العبارة لأمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكننا لم نجدها في مصدر موثوق به. برغم صحة معناها.

قصة، وتجرف من هناك أسطورة، وغَلَبَ الكذبُ المثيرُ وانتشر.

وهذا ممّا عبّر عنه الفاروق رضي الله عنه حين قال: «كَانَ الشِّعْرُ علمَ قوم لم يكن لَهُم علمٌ أصحُّ مِنْهُ[١]» وفي هذه القصيدة مصداق كلامه رضي الله عنه؛ ففيها صورة صادقة دقيقة لنفس قائلها ولمجتمعه وبيئته، وقد جاءت خاليةً من أي تناقض مهما دقَّ محكمةً مترابطةً.

وقد اهتمّ بها الشرّاح والدارسون، وبذلوا في سبيلها جهودًا كبيرةً لولاها ما فهمتُ من هذه القصيدة العظيمة إلا القليل، غير أني وجدتُ في نفسي ما يمكن أن أضيفه إلى جهودهم الصادقة، وشجّعني أستاذي الحبيب أ. د. محمد جمال صقر -أحسن الله إليه، وإليهم جميعًا!- فكتبتُ ما قرأتَ كتابةَ قارئ متذوّق، وليس كما يكتب دارس أكاديمي أو عالم ناقد، واخترتُ من الروايات ما يناسب معانيها كما بَدَتْ لي دون إشارة إلى اختلاف الروايات أو ما شابه[٢] لكيلا أبتعد عن غرضي أو أشتت القارئ عنه بعد عزمي على إيصال المعنى إليه بأيسر الطرق.

وقد أغناني عن تخريج الأبيات وترتيبها ومقابلة الروايات والتعريف بالشاعر وعصره وبما دار حول اللامية من نقاشات

---

(١) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، دار المدني، ١/ ٢٤.

(٢) كاختياري مثلًا في البيت الخمسين: (يابنة الرمل)، وقد رويت أيضًا (كابنة الرمل) و(يابنة القوم)، والأُولى كما رأيتَ في الشرح في مكانها تمامًا حتى أكاد أجزم أن الروايتين الأخريين خطأ. وقد أشرتُ قبل قليل إلى أحد المصادر التي قابلتْ بعض الروايات ببعض إن أردتَ الرجوع إليها.

وآراء أنني لن أزيد شيئًا على ما كتبه أساتذتي الذين تعرّضوا بالدراسة لهذه القصيدة وغيرها من أعمال الشاعر، ولن يكون عملي أكثر من نقل ما كتبوه أو تلخيصه، وهو متاح يسهل الوصول إليه لمن أراده، ولم يؤثّر على العمل -كما رأيتَ- فراغُه من ذلك كله، وقد كفاني الشنفرى ذلك أيضًا؛ إذ كانت قصيدته في درجة عالية من الكمال والدقة.

ثم إنني لم أقصد بحال إلى أن أسقط على الواقع أو أن أحمّل القصيدة شيئًا منه، فإن وجدتَ أي شبه فاعلم أنّ الأزمان تتشابه، والناس هم الناس، ولن أخون أمانة الكلمة، وأترك وسائل التواصل الكثيرة المتاحة، وأخفي رأيي في ستين صفحة تقريبًا، قد يطول عمري ثم ينتهي قبل أن ينتهي عشرة من قراءتها[1]!

---

(١) لم أتصور عند كتابة هذا الشرح أول مرة أن يطول، ولا كنتُ أفكر في طباعته، وما طمعتُ في أكثر من أن ينشره لي أستاذي الحبيب أ. د. محمد جمال صقر -أحسن الله إليه!- على موقعه المبارك، وقد توقّعتُ أن ينصرف الناس عن قراءته؛ فما عساه يضيف هذا الكاتب الجديد إلى لامية العرب بعد الذي كتبه القدماء والمحدثون! ثم قدّر الله أن أجمع إليه غيره، وأن أنشط لطباعته، وجاءتني الموافقة على طباعته بعد عام وثلاثة أشهر من كتابة نسخته الأولى، وقد تغير في خلال هذا الوقت فهمي لعدد قليل من أبيات اللامية، فعجلتُ لتعديل ما رأيتُه حقيقًا بالتعديل، ثم كرهتُ أن أعدّل هذه الفقرة لما فيها من دلالات كثيرة واضحة على بواعث الكتابة وغاياتها ومنهجي الذي اخترتُه وحرصتُ عليه، ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم: ٥٠).

أسأل الله أن يُقيّض لهذه القصيدة عالمًا ناقدًا بصيرًا بكلام العرب وأشعارهم يقوم بحقِّها كاملًا، ويستخرج كنوزها كلها، وينشرها على الناس.

وأرجو أن أكون قد وُفقتُ فيما عملتُ!

نفع الله بهذا العمل، وجعله خالصًا لوجهه الكريم!

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين!

والحمد لله رب العالمين!



محمود رفعت

الجمعة: 15 من ربيع الأول 1440

23من نوفمبر2018 م



مَعَ الشَّنْفَرى في تائِيَّتِهِ[1]

(١) نُشِرَتْ على موقع أستاذنا الحبيب أ. د. محمد جمال صقر، أحسن الله إليه! http://mogasaqr.com/ في الثاني والعشرين من يناير عام ٢٠٢٠م.

تمهيد[١]

كانت فترةَ جَمام، لكنّ الشنفرى لم يكن ممن يلازم بيته مُرِبًّا بِعِرْسِه[٢] ولو كان في فترة راحة، ولا كان كبعض أصدقائه الصعاليك الذين لا يجدون راحتهم إلا خارج كل بيت فلا يدخلون بيتًا غير عادين على أهله إلا قليلًا، كان وسطًا بين هذا وذاك بلا إفراط ولا تفريط.

سيغدو إذن من بيته على عادته وبرغم كل شيء، برغم هذا الحَدْسِ القوي الغالب على قلبه بأنّ زوجَهُ تُدبّر لأمر ما، وبرغم صمتها المُنْبِئِ عن خبر، وبرغم حرصها الشديد على أن يبدو اليومُ كَكُلِّ يوم، لكنّه يعلم أنه ليس كَكُل يوم وسيخرج على عادته.

لم يكن الشنفرى يرضى من زوجه بأقل مما يستحق من انقياد تامٍّ له وثقة مطلقة به، فإن أجابته كانت أهلًا لثقته التامة وحسن عشرته ما بقيت مستحقة لهما، وكان كغيره من ذوي النفوس

(١) وقد بنينا هذا التمهيد على ما سيأتي في الشرح من بعد.

(٢) نفى ذلك عن نفسه في البيت السادس عشر من لامية العرب.

العظيمة يكره أن يضيع وقته في مجادلات لا طائل منها؛ فهو لن يتغير، وجناياته لن تتوقف عن مطاردته، ولا سبيل إلى تهدئة قلقها وتسكين خوفها، وقد سكتت الآن وصمتت، أفإن نطقت يُسكتها وإن سكتت يُنطقها فيكون كمن يطالعها في شأنه كيف يفعل[1]! لا طبعًا، لذلك ذهب وتركها حتى يهدأ بالها، ويصفوَ قلبها؛ فليست أول مرة، وقد طالت استقامتها على طريقته بعد أن ذاقت حلاوة طَوْعه ورأت مُرّ غضبه فألقت إليه بمقودها، ودانت له بالطاعة، وهي الآن تبدو هادئة، وهذا خير، فسيترك ما في قلبها في قلبها، ويحمل همّه في قلبه ويغدو على عادته.

كانت فترة جَمام، وكان قبلها ما كان من بعض مغامراته وأصحابه، فلما خرج اجتمع إليه القوم قريبًا من بيته ليقصّ عليهم من خبره؛ فكان هو أصل المجلس، وكان حديثه فاكهته وزينته[2]، لكن قلبه لم يكن خاليًا بل كان مشغولًا بوساوسه التي تنغّص عليه منذ عاد إلى بيته الليلة الماضية، وكانت تزداد كلما مرّ الوقت.

ثُمَّ وقع ما خشيَ وحذِرَ، ولا رادَّ لقضاء الله سبحانه!

---

(١) انتقد ذلك في البيت السادس عشر من لامية العرب.

(٢) وربما كانت هذه (النجومية) أحد أسباب الأذى الذي تعرّض له وذكره في البيت الثالث من لامية العرب: وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى. وكانت مما يغري به كبار قومه ليسيئوا إليه فخاف القِلى فرحل.

انتصار عجيب

١- أَلا أُمُّ عَمْرٍو أَجْمَعَتْ فَاسْتَقَلَّتِ
وَمـا وَدَّعَـــتْ جيرانَها إِذْ تَـوَلَّـتِ[١]

يسوق الشنفرى الخبر كما تُساق أخبار الانتصارات العظيمة التي تستحق الإنصات، فلا يُلقي ما عنده إلا بعقب تنبيه الجميع بـ (ألا) ثم يذكر زوجه بكنيتها احترامًا وإجلالًا؛ فهي صاحبة الانتصار، ثم الخبر، فإن أم عمرو قد جمعت شتات رأيها، واستعادت السيطرة على نفسها فاستبدّت بأمرها واستقلّت من خضوعها فقررت الرحيل مظهرةً الحزم وقوة النفس ومضاء العزيمة حتى لقد أبت أن تودّع الشنفرى حين مرت به ولو بكلمة، فسارت حاملةً معها دعته وسكينته اللتين نعمَ بهما في وجودها[٢].

---

(١) **تولت**: انصرفت. وبين هذا البيت والبيتين الأوّلين في لامية العرب شبه كبير لا يمكن إنكاره، وهو دليل على أن أحد الزوجين أوحي بهذا الأسلوب للآخر وسنزيد هذا الشبه بيانًا في خلال الشرح.

(٢) لعلك انتبهتَ إلى أننا فسرنا (استقلت) بمعنيين مختلفين عما فسرها به مَنْ تعرّض لشرح هذه القصيدة؛ فقد قالوا: استقلت: سارت، وقد فسرناها هنا بـ (استبدت) و(ارتفعت)، كما فسرنا (ودّعت) بسلام المسافر والترك في دعة، ولا أرى مانعًا من ذلك؛ إذ لا تناقض بين المعنيين فإنها لكي تستبد برأي لا بد أن ترتفع بنفسها من درك الخضوع، وكذلك لا يكون توديع المسافر إلا دعاء بالسلام والدعة، وسنرى بعد قليل كيف أن الشنفرى قد فُجِعَ برحيلها، وظني أن أولئك القوم كانوا لا يفصلون بين معاني الكلمة الواحدة هذا=

لكنها لم تمتنع عن توديعه احتقارًا له أو استقلالًا، بل كان هو قلب النَّدِيّ القريب الذي مرت به ولسانه، ولولاه ما كان، ولهذا عبّر عن نفسه بـ (جيرانها)، وسيؤكد ذلك في البيت التالي، وإنما أرادت بعدم توديعه إثبات القطيعة التامة الحادثة الآن بينهما، وأن قرارها الرحيل قرار نهائي لا رجعة فيه ولا جدال فاعتصمت بالصمت التام حتى لا يستدرجها الشنفرى لنقاش كانت تعلم ضعفها عن مجاراته فيه.

وقد يقول قائل: ما بالُ الرجل يصوغ هذا الخبر بهذا الأسلوب! أتراه ساخرًا منها مستهينًا بفعلها! أم أفقده الرحيل عقله!

بل الرجل مع حبه للبطولة منصفٌ يعرف الفضل لذوي الفضل[١]، وقد أحسنت المرأة التدبير والتنفيذ، ثم إنها في تدبيرها وتنفيذها لم تُبدع شيئًا من عند نفسها بل استفادته كله منه؛ فهي مع ذلك التلميذة التي انتصرتْ على أستاذِها، وأستاذُها كان إلى تلك اللحظة أقرب الناس إليها فكيف يغضبه نجاحها أم كيف ينفسه عليها[٢]!

= الفصل الجائر الذي نفعله نحن اليوم، بل كانوا يرون فيها معناها المراد وما يصحبه من ظلال المعاني الأخرى.

(١) من قولهم: لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

(٢) بمثل هذا التكتم كان يستعد الشنفرى لغزواته كما سيأتي، وبمثله أيضًا استعدّ لهجر قومه، وقد ذكر ما يدل على ذلك في لامية العرب: فقد حُمَّت الحاجات والليل مقمر وشدّت =

٢- وَقَـدْ سَبَقَتْنا أُمُّ عَـمْـرٍو بِأَمْرِها
وَكـانَـتْ بِـأَعْـنـاقِ الْـمَـطِـيِّ أَظَـلَّـتِ

يبوح الشنفرى بسرِّه حين يقول (سبقتنا)؛ فكأنه كان قد عزم على أن يسترضيها عند عودته إلى بيته، لكنها سبقته وهو العدّاء الذي لا يُسبق، ولذلك استحقت أن تذكر بكنيتها الآن أيضًا، وهي لم تسبقه بخطوة أو اثنتين بل بطريق طويل جازته وهو لا يزال جالسًا لم يتحرك خطوة واحدة حتى أشرفت عليه وهو جالس فأظلتْه بعنق مطيتها، وقد سبقته هو وحده وما استعماله الضمير (نا) إلا ليدل على أنه هو المعنيّ الوحيد بـ (جيرانها) في البيت السابق[(١)].

٣- بِعَيْنَيَّ ما أَمْسَتْ فَباتَتْ فَأَصْبَحَتْ
فَقَضَّتْ أُمــورًا فَاسْتَقَلَّتْ فَـوَلَّـتِ[(٢)]

وهي لم تسبقه خَتْلًا وخداعًا، بل كان سباقًا نزيهًا جرى كله على عينه وكان يظنّ أنها تدبر لشيء، وكان هو الذي يتجاهل هذه الظنون ويدفعها على عادته، ثم تعود فتأتيه على عادتها[(٣)].

= لطيات مطايا وأرحل. وليس ببعيد أن يكون تفوّق أميمة عليه قد أوحى إليه أنه قادر على أن يتفوّق على وحوش الصحراء إن أراد.

(١) وقد بنينا على كلمته (سبقتنا) جزءًا مما جاء في التمهيد.

(٢) **قضّت**: أنهت، **فولّت**: فانصرفت.

(٣) وهو ما عبّر عنه بعد ذلك في اللامية: وإلف هموم ... إذا وردتْ أصدرتُها ثم إنها تعود فتأتي من تحيت ومن علُ.

وقد انتبه لهذا التدبير منذ عاد إلى بيته الليلةَ التي سبقت رحيلها، وانتبه إلى اختلافها وتغيّرها، ورأى معاملتها الباردة له ولما حولها فعرف، ثم كأنها باتت ليلتها قلقة تفكّر، فلمّا طلع الصُّبح قامت نشيطة، ولو أنها نامت لتعوّض أرق ليلتها لما فاتها شيء، لكنها قامت نشيطة كأنها كانت تنتظر الصُّبح، ثم انشغلت بأعمالٍ في بيتها تنهيها على عجل، وهذا ليس عمل امرأة تعرف أن اليوم أمامها طويل.

انشغلت بأعمالها عنه، وخرج على عادته ثم ما لبث أن رأى المطية فعرفها وعرف الأمر، لكنه قام ينظر مع ذلك إنكارًا وأملًا في أن يكون مخطئًا فإذا أم عمرٍو وقد تنكّرت له، وأشاحت بوجهها عنه، وصمتت فلم تجب عن شيء[1].

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) (طه: ٣٩)، ولو أن الشنفرى قال: بِعَيْنِي. على الإفراد لسلم الوزن، لكنني أرى أنه اختار أن يُعبّر بصيغة المثنى كما يفعل العامة حتى الآن حين يقولون مثلًا: رأيتُه بعينيّ الاثنتين. أو: بعينيّ هاتين. وأمثال هذا مما لا يكون الغرض منه إلا إثبات وضوح الرؤية الشديد وإبصار الحدث من جوانبه كلها حتى إن الناظر لم يخفَ عليه شيء، ولا أشك في أن الشنفرى ذكر عينيه لإثبات الأمر نفسه، وضوح الرؤية وإبصار جوانب الحدث كلها، وأرى أن (استقلَّت) هنا بمعنى ركبت أي استقلت مطيتها، ثم لو أنّ غير الشنفرى في غير هذه القصيدة قال: فقضَّت أمورًا. لوجب أن نضع احتمالا ولو ضعيفًا بأنها كناية عما لا يجب ذكره مما يكون بين الرجل وامرأته، لكن الشنفرى كان يربأ بنفسه عن ذكر تلك الأمور، بل كان يربأ بنفسه عن التغزل، فإن أراد لم يستطع كما سنرى في هذه القصيدة، وقد لام في لامية العرب على من كان خالفًا دارية متغزّلا.

حسرة منحسرة

٤- فَـوا كَـبِـدا عَلى أُمَـيْـمَـةَ بَعْدَما
طَمِعْتُ فَهَبْها نِعْمَةَ الْعَيْشِ زَلَّـتِ[١]

نظر الشنفرى فإذا هي امرأة أخرى غير التي كانت؛ قد تنكّرت له حتى كأنها لم تعرفه من قبل أو يعرفها، في تلك اللحظة يدرك الشنفرى أنه فقد أميمة للأبد، لم يفقد أم عمرو المحترمة الموقَّرة[٢]، بل فقد أميمة القريبة من نفسه، لذلك لم يملك أن تفجّع وتحسّر، وفي غمرة تفجعه تُفلت منه (بعدما طمعتُ) فتضع حدًّا يقف عنده ذلك التفجّع؛ لقد عرف منذ بدأ يعقل أن أمثاله في هذه الدنيا غرباء، وأنها تُعامل الغرباء بلؤم، فلا تعطيهم إلا ما يَسوؤهم؛ فكان لا يطمع منها في شيء حتى رُزق هذه الزوج المطيعة فطمعَ في أن يجد فيها العوض، ولم يدرِ أن طمعه هذا شَرَكٌ.

وفي هذه اللحظة نفسها التي ينتهي فيها تفجّعه يفيء إلى عقله فيدرك أنه لم يخسر شيئًا على الحقيقة بل كسب الوقت الذي قضاه معها؛ فإن تكن الدنيا قد استردّت ما وهبت فقد سعدَ بها وُهِب[٣]،

---

(١) هبها: عُدّها، زلت: أُسْدِيَتْ.

(٢) أي التي يحترمها ويوقرها أمام الناس كما في أول بيتين، والمقصود بيان سبب استبداله اسمها بكنيتها.

(٣) كان الشنفرى يلجأ لهذا الأسلوب كلما ساءه أمر؛ فقد سارع إلى حشد مجموعة من النعم التي رُزق بها بعقب ذكره معاناته هو والذئاب في سبيل القوت الزهيد المستعصي، راجع شرح البيت السابع والثلاثين من لامية العرب، وقارن بينه وبين ما تجد هنا.

ثم عاد إلى ما كان عليه لم يخسر شيئا بل كان الفائز، وهذا سبب قوله: فهبها نعمة العيش زلتِ[١].

فراق أبدي

٥- فَيا جارَتي وَأَنْتِ غَيْرُ مُليمَةٍ
إِذا ذُكِرَتْ وَلا بِذاتِ تَقَلَّتِ[٢]

بهذه النظرة المنطقية الثاقبة كفَّ الشنفرى من غرب جزعه حتى تحولت النقمة المُفْجِعةُ في نظره إلى نعمة مسداة، وبالعقل نفسه كان لا بد أن يختار طريقة إنهاء هذا الموقف الصعب الذي يقفه.

لقد عاد إليه عقله سريعًا وهو لا يزال ممسكًا بزمام مطيتها لم يرسله، ينظر إليها فتشيح عنه، يكلمها فلا تجيب، ومن خلفه القوم يسمعون وينظرون مترقبين ردة فعل هذا المغامر الفاتك، لكنه لا تزدهي الأجهال حلمه[٣] فلا يقيم لغيرها في هذه اللحظة وزنًا[٤]،

(١) ما كان أسرع فيئته وأقرب مثابته! وليس يُتوقع منه غير هذا؛ ومن قرأ تشبيهه نفسه بذلك الذئب وصبره الجميل على شدة الجوع ومرّ الخيبة يجد هذا التشابه الشديد بين هذا الموقف وذاك: شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل/ وفاء وفاءت بادرات وكلها على نكظ مما يكاتم مجمل. فهي الصرخة المرّة نفسها يعقبها الفيئة السريعة الصابرة العاقلة نفسها، لكنه هنا يأبى أن يُنهي بيته قبل أن يؤكد لهذه الدنيا أنه الفائز برغم إرادتها هزيمته.

(٢) **المليم**: مَن يأتي ذنبًا يُلام عليه، **تقلّت**: تبغّضت.

(٣) من البيت الرابع والخمسين من لامية العرب.

(٤) وكيف يقيم لهم وزنا وهو بعد قليل سيهجرهم، لكنه لن يفعل حتى يمر بهم من هذا المكان نفسه وينادي فيهم محتقرا لهم: أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل!

وإن كان يعرف أنها لا تزال برغم ما تخلّقت به المدةَ الماضية -لا تزال في قرارة نفسها تكترث لآراء الناس، ولا تُحِب أن يُؤْثَرَ عنها بعد رحيلها ما تكره، وهذا مما يزيد عدد خياراته المتاحة.

لكن ما هذه الخيارات كلها! إن خياره معروف، إن حاجته إلى المرأة هي حاجة نفسه لا حاجة جسده، إنه لا يريد من المرأة إلا أن تفهم عنه وأن توافقه، فإن فعلت كان أمنَها وملاذَها ومحلَّ ثقتِها وسببَ سعادتِها، وبهذا تتحقق سعادتُه وراحتُه، ولا سبيل إلى هذا كله بالإجبار والإكراه، ولا يمكن أن يحدث هذا بعد أن فركته وتولّت عنه، لذلك يقرر الشنفرى في هذه اللحظة الصعبة أن يُخلِّيَ لها سبيلها إلى حيث شاءت وأن يتخلّى أيضًا عن كل أمل له فيها، فيناديها هذا النداء المطمئن لها الآن (يا جارتي) فلم تعد مثابةَ نفسه القريبةَ من قلبه، ولا عاد له فيها أمل ربما يدفعه إلى ما تكره، وما قربها الآن منه إلا قرب مكان من مكان: فيا جارتي كنتِ فبنتِ، فيا جارتي كنتُ فاستقمتُ، فيا جارتي لا أنتِ من بعدُ أنتِ ولا أنا من بعدُ أنا؛ فلا فيك من بعد مطمع ولا عاد بي طمع، فانطلقي راشدة مطمئنة فإنني لن أذكركِ بسوءٍ بعد ذهابكِ. وفي سبيل تأكيد هذا المعنى يلتفت الشنفرى من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب؛ فإنها بعد أن تغيب لن تُلام، ولن يُقال عنها إنها أتت ما تُكره المرأة بسببه[1].

---

(١) لذلك اختار الشنفرى ألا يترك قومه بمثل الطريقة التي تركته بها أميمة؛ فإنهم ليسوا في كرم =

سبب الزواج

٦- لَقَدْ أَعْجَبَتْني لا سَقوطٌ قِناعُها
إِذا ما مَشَتْ وَلا بِذاتِ تَلَفُّتِ

مهما كان الإنسان حازمًا فإنه ليس آلة يمكنها أن تتجاوز مرحلة من حياتها إلى مرحلة أخرى دون أن تتغير أو يؤثّر فيها شيء، تجلّد الشنفرى، ونظر إلى المنحة في المحنة، وعلم أن حظَّه منها كان الحظ الأوفى، وكان من تجلده أن عاد إلى النادي، لكنه لم يستطع أن يدفع همومه الجديدة التي أنشأها ذلك الموقف، ولا تمكن من تغيير أثرها عليه حتى تعجّب من كآبته ناديه[١]؛ فالنساء غيرها كثير.

أما هو فليس يُنكر أن النساء غيرها كثير، لكنه خُلِق مخلِصًا ألوفًا؛ فحزنه على الفراق بعد الوصل أمر لا حُكم له عليه[٢].

وبرغم أنه عدّها نعمة العيش زلّت إلا أنها لم تكن أكثر من

= أخلاقه واستقامة طباعه؛ فلم يحب أن يروا رحيله مصادفةً، ولا أن ينظروا يومًا فيجدوا مكانه خاليًا ثم يسمعوا بفتكاته وعَدْواته فيصفوه بما يكره أو يرموه بالكذب والبهتان، بل أحب أن يواجههم بحقيقة أمره وأمرهم وأن يُخرج أضغانهم وأن يرد باطلهم بالحق كفاحًا، وأظهر سلاحه مستعدًّا لكل احتمال.

(١) جلساؤه.

(٢) انظر إلى سرعة إلفه القطا كما بينّا في شرح لامية العرب، ثم انظر إلى هذه اللوحة الجميلة التي ختم بها اللامية فإن ارتباط عناصرها لم يتمّ إلا على أساس من الإلف.

امرأة أعجبته، وما كان نعيمه بها إلا لفهمها إياه وموافقتها له، وبهذا استحقت أن يُصفيها الود، ثم أن يحزن لفراقها من بعد، أما تفجّعه في البيت الرابع فإنه كان من طغيان الوجد عند صدمة الفقد الأولى، وما كان أسرع انحساره! ثم إن هذا الطغيان لم يخدع الشنفرى عن عقله، كما يقع لكثير من الناس إذا وقع ما يحزنهم فيحسبون شدة حزنهم لشدة حبِّهم ما فَقَدوا.

كان الشنفرى بصيرًا بنفسه مُطّلِعًا على خبايا قلبه، كما كان بصيرًا بالناس يَعرف من حالهم خبايا قلوبهم، وبهذه البصيرة علم الشنفرى عندما رأى تلك المرأة أول مرة أن باطنها طيب كظاهرها؛ فكما أنها لا تتبذل في لُبْسِها ومشيها فإنها لا تأتي ما يُقلقها وتخشى أن يطّلع عليه الناس؛ فهي لا متبذلة ساقطة ولا مُتَلَفِّتة مُريبة.

وهو لم ينفِ التلفت فقط بل نفى أن يكون ذلك من طبيعتها، لأنه لم يحكم عليها هذا الحكم من أول مرة رآها فيها، بل بعد أكثر من مرة حتى علم من صفاتها طبيعتَها وأنها ليست بـ «ذات تلفّت» فإن كانت هذه طبيعتها فمن طبيعتها أيضًا ألا تتبذل في لُبسها ومشيها، وتمسكها بالعفة والتصاون دليل حزم شديد لا يضعف، وحفظها للغيب دليل كِياسة وعقل[1].

---

(١) سنجد أن حزمها وكياستها كانا أساس كل صفة يصفها بها من بعد، وأنها لم تتخل عنهما حتى عند رحيلها عنه.

لم يخترها الشنفرى إذن من بين أولئك النساء الكثيرات لجمال لافت أو حب طاغ بل لصفات خُلُقية أساسية لا غنى عنها لمثله، ثم تزوجها وتحوّلت إلى بيته، ومكثت فيه قدر ما مكثت، ثُمَّتْ تحوّلت الآن مولّية عنه، ولم يتحوّل هذا الإعجاب إلى حب أو هُيام، ولا إلى كُره وحقد، ظل إعجابًا لا أكثر ولا أقل(١)؛ فلم يكن الشنفرى ممن يدخل العشق قلوبهم، ولا كان ممن يغمط غيره حقَّه(٢).

---

(١) سيلحظ القارئ بسهولة اختلاف صفتيها في هذا البيت عن صفاتها في باقي الأبيات؛ فإن صفتيها في هذا البيت من الصفات التي تبدو منها للناظر الغريب بخلاف الصفات الأخرى؛ فإنها لا تبدو سوى للزوج أو لا تُهمّ غيره إلا ما سيكون في البيت التاسع من صفات يُكمل بها صفات البيت الثامن ويؤكّدها، وهذا ما دلّنا على ما أثبتناه في الشرح من أن هذا ما جذبه إليها أول الأمر.

(٢) قد يقول قائل: لعلها أعجبته قبل الزواج، ثم تحوّل الإعجاب إلى حب بعد الزواج. والحقيقة أن ليس في القصيدة كلها ما يمكن أن نحمله على هذا المعنى أو يحملنا على ذلك الظن، وكانت هذه القصيدة أحق بأن يعبر فيها عن حبه إن كان، لكن الرجل لم يكن ممن يصرف همّه إلى العشق والغزل، ولا كان ممن تشغله الأوهام الجميلة الخلّابة عن الحقائق الصادمة المفجعة، وقد أحاطته الحياة منذ بدأ يعي بأقبح ما فيها من خذلان ولؤم وصِغار، وقد عاملها منذ انتبه لذلك بما تستحقه من غضب وأنفة وشجاعة وصبر، فرضي بقدره الذي أقامه في ذلك المقام الضنك واحتمل ثأره غير ضائق به أو متخاذل عنه، وأصبح الانتقام قضيته الكبرى التي استوهبته حياته فوهبها لها راضيًا مرضيًّا، وراض نفسه بما يصلحها في سبيل قضيته الكبرى، وكان أول ما استصلحها به أن حال بينها وبين التشبه بالمحيطين به (راجع حرصه على هذا ومبالغته فيه في شرحنا للامية العرب)، وسوف نرى في هذه القصيدة وفي لامية العرب كيف استطاع الشنفرى هدم كل المسلمات التي وجدها في بيئته دون أن يعبأ بما وراءها من أفكار عقدية أو أصول اجتماعية أو أعراف وقوانين =

حزم وكياسة وطاعة

٧- تَبيتُ بُعَيْدَ النَّوْمِ تُهْدي غَبوقَها
لِجارَتِها إذا الْهَدِيَّةُ قَلَّتِ(١)

٨- تَحُلُّ بِمَنْجاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتَها
إذا ما بُيوتٌ بِالْمَذَمَّةِ حُلَّتِ(٢)

٩- كَأَنَّ لَها في الْأَرْضِ نِسْيًا تَقُصُّهُ
عَلى أَمِّها وَإِنْ تُكَلِّمْكَ تَبْلِتِ(٣)

= وليس يُتوقع من رجل حريص على التخفف من كل شيء يمكن أن يَعوق حركته أو يُضعف منها، وقد اعتاد أن يسابق الجميع فيتجاوزهم بأشواط حتى صار مضرب المثل بسرعته وسبقه -لا يتوقع من مثل هذا الرجل أن ينصب لنفسه وثنًا ثم يعكف عليه متغزلًا متحببًا في ذلة وضعف وخَوَر وإن كانت أجمل النساء وأكملهنّ، وأي جمال وأي دلال وأي رقة تُذهل مثله عن قضيته وعما جرّت عليه من جنايات لا تني تطارده في وسط غير مؤتمَن (همُ الأهل لا مستودَع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يُخذلُ)! لا، لا، لا يمكن، ولن يجد القارئ في الأشعار المنسوبة إليه بيتًا واحدا في الغزل أو يمكن أن يُحمل معناه على معنى الغزل برغم مقدرته الشعرية العظيمة، ثم إنه سيهجر قومه بعد هذا، وسيبوح في لامية العرب بخبايا نفسه، وسيأتي فيها على ذكر بعض ماضيه وصفاته، لكنه لن يذكر أي حب لأي امرأة برغم وَحدته وانفراده وطول وقته وإلف الهموم له، بل سيعيب على ذلك الذي كان يتغزّل، كأنه عندما قال: ولا خالف دارية متغزّل. كان يرى أن هذا في ذلك العصر وسط تلك الظروف من نواقض المروءة، أما عن غمط غيره حقه فانظر كيف انتصف للذئب في لامية العرب كما بيّنّا في شرحها.

(١) **الغبوق**: شراب العَشيّ.

(٢) **بمنجاة**: متنزهةً ومترَفعةً.

(٣) **النسي**: المفقود، **تقصُّه**: تطلبه، **أَمِّها**: قصدها، **تبلت**: تقطع ولا تُطيل.



ثم أثبتت الأيام له صدق ظنه فيها، وأنّ باطنها طيب كظاهرها؛ كانت كريمة تؤثر غيرها بالهدايا إن وُجدت، فإن عزّت آثرتْ بغبوقها على نفسها، ومن طيب باطنها أنها لم تكن تفعل ذلك ليقول الناس: قد فعلتْ. ولا كانت تسيء إلى من تُحسن إليها بل كانت تنتظر إلى أن ينام الناس حتى لا يراها أحد، ثم تُسرع إلى من تحسن إليها قبل أن تنام، لكنها لا تذهب إلا لامرأة وهذه المرأة جارة قريبة ومعروفة مراعاة لغيرة الشنفرى، ولولا أن الجارة امرأة لذهب إليها الشنفرى بنفسه، لكنه عفيف كريم يكره أن يُعرّض نفسه لابتلاء أو أن يعرّض سيرته لاتهام، ثُمَّت إنها لا تنتظر أن تأتي الفقيرة المسكينة إليها برغم أنها لا تخرج من بيتها إلا لضرورة، وعدم خروجها ليس لمرض أو ضعف بل إيثارًا للسلامة من اللوم، في حين أن نساء غيرها يُحبسن في البيوت مذمومات، وإتيان أولئك النسوة ما يذممن به لم يُجرِّئها على إتيان ما أتين، بل تصاونت على عادتها وطبعها، ثم كانت إذا خرجت مضطرة قصدت إلى حاجتها منقطعة عن أي اتصال بالناس ولو لم يكن إلا اتصالًا بصريًا، تكتفي من نظرها بإبصار طريقها كأنها تبحث عن شيء وقع منها، وتسرع في قضاء حاجتها إسراع مَن يخشى ضياع ما سقط منه إن تأخر عن العثور عليه، فإن اضطرت للكلام مع رجل تكلمت بالكلام الفصل الذي لا مجال فيه لأخذ وردّ ولا سبيل إلى تفسيره بغير المعنى الذي قيل فيه.

حزمٌ وكِياسةٌ وطاعة، وطاعتها في أن تقرَّ في بيتها تجنبًا للّوم،

فأيّ لوم يمكن تصوّره لامرأة منقطعة عن كل شيء وكل إنسان خارج بيتها إلا أن يكون لوم الشنفرى نفسه لها إن خرجت لغير ضرورة ملحة[1]! فقد وازنَ في البيت الثامن إذن بين مَنْعَيْن، منعه زوجه الخروج إلا لضرورة ملحة حفاظًا وغَيْرَةً، ومنع غيرِه أهلَه الخروج عقابًا وتأديبًا، فهو إذن لا يمدح خفرها وقرارها في بيتها بقدر ما يمدح طاعتها له وحفظها لعهده حتى عند خروجها لقضاء حاجاتها الضرورية، أما تعهدها لجارتها المحتاجة وترددها المستمر عليها فلا يُتصور أن يكون إلا بإذنه، أو ربما كان عن رغبته؛ فربما كانت تلك الجارة امرأة ضعيفة لا عائل لها؛ فكان يحضّ زوجه على تعهدها والقيام على حاجتها، وليس يُتوقع منه أن يذكر تفاصيل فيكشف ذلك الستر الذي حرص وزوجَه على صونه وتُفضح تلك الجارة المسكينة الآن في شعره، بل يكفيه الإشارة العابرة.

ولم تَجد أميمة في استبداد الشنفرى ما يُلام عليه أو يُهجر بسببه، بل هجرته لغير ذلك، وسيشير إليه في موضعه، ولا نلومه نحن أيضًا على استبداده ذلك؛ فإنه لم يكن يأمرها إلا بما يأخذ به نفسه،

(١) راجع القطعة التي مطلعها (إذا أصبحتُ بين جبال قوٍّ وبيضان القرى لم تحذريني) تجد فيها نموذجًا للومه الشديد إياها وتقريعها، وتجد تهديدًا واضحًا بهجره، وتجد فيها دليلا قاطعًا على أنها زوجه، ولا مجال أصلًا لما أثير حول علاقة الشنفرى بأميمة، ولا أجد سببًا يدفع إليه ولا تفسيرًا مقنعًا له إلا أن يكون من باب الإغراب والبحث عن جديد يُقال، تأمّلْ القطعة المشار إليها فإنها غنية بالتفاصيل، ولم يقصد بقوله: (وإما أن تخوني) الخيانة الزوجية كما قد يظن بعض القراء.

ولا كان ينهاها إلا عما لا يليق بها وبه، وقد رأت ذلك كله وعلِمَتْه؛ رأت أنه لا يكون أعجل من يمد يده إلى طعام لأن أجشع القوم أعجل، وأنه لا يستفزه إلى الزاد حرص أو فؤاد موكّل، ويديم مطال الجوع حتى يميته وأهون عليه أن يستف ترب الأرض من أن يخضع لمتكبر، مع قدرته لو أراد على أن يكون أغنى قومه، وأنه لا يجزع لفقر ولا يمرح إذا اغتنى، فلما رأت ذلك كله واقتنعت به هان عليها أن تهدي غبوقها لجارتها إن لم تجد غيره في بيتها[١].

ثم إن أخبار أولئك القوم كانت تصل إليها فتجد عجبًا، أسرارًا تُذاع وأبناءً يُسلمون وجبناء تافهين يُسوّدون والسيادة على الحقيقة للصواحب والأزواج اللواتي استبددن بأصحابهن وأزواجهن حتى سرت أخلاقهن في أخلاقهم فتفرّغوا للنميمة وتعقب عورات الناس، فإن وجدوا أحدًا لا يعرفون له عيبًا يذمونه به رموه بالباطل كما سيُرمى الشنفرى فيما بعد عند هجره إياهم[٢]، وطالما الأمر كذلك ففي البيت منأى للكريمة عن الأذى، وفيه لمن خافت القلى متعزّل[٣]، فلا عجب إذن أن أطاعته ولم تلمه، ولا يُلام.

---

(١) صفاته المذكورة هنا مستفادة كلها من لامية العرب، انظر شرحنا لها.

(٢) صفات مجتمعه المذكورة هنا مستفادة كلها من لامية العرب، انظر شرحنا لها.

(٣) نقصد أن الفكرة واحدة فكرة صون الشرف وتجنب اللوم، أخذ الشنفرى بها نفسه وزوجه، ونقصد أيضًا إلى أن التشابه بين البيت الثامن هنا والبيت الثالث في لامية العرب أكبر من أن نتجاهله.

في المساء

١٠- أُمَيْمَةُ لا يُخْزي نَثاها حَليلَها
إِذا ذُكِـرَ النِّسْـوانُ عَـفَّـتْ وَجَـلَّـتِ[١]

١١- إِذا هُـوَ أَمْـسـى آبَ قُـرَّةَ عَيْنِهِ
مَـآبَ السَّعيدِ لَـمْ يَسَلْ أَيْـنَ ظَلَّتِ[٢]

لم يتشدد الشنفرى ويستبد لفساد طبع أميمة أو سوء خلقها أو لخشيته أن تزل، فهي أبعد ما تكون عن ذلك، ولولا أنه رأى منها عفة وتصاونًا ما انجذب إليها ولا أعجبته.

ولم تكن غيرته لفساد طبعه أو سوء خلقه أو لتسلط الشك عليه[٣]، ولو كانت تلك طباعه لكان شكّه فيها عند رحيلها أعظم، لكن الشك لم يتسرّب إلى نفسه لحظة، وتخليته سبيلها مع هذا العهد الذي قطعه على نفسه دليل صلاح طبعه وكرم

(١) **نثاها**: خبرها، **حليلها**: زوجها، **جلّت**: عظم قدرها.

(٢) **آب**: رجع، **قرة عينه**: مصدر اطمئنانه، **مآب**: رجوع.

(٣) لا يمكن أن تكون الغيرة عيبًا إلا عند منكسي الفطرة فاسدي التصور سقيمي الفهم عديمي المروءة، ولو كانت عيبًا ما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما مِن أحَدٍ أغْيَرُ مِنَ اللهِ، مِن أجْلِ ذلكَ حَرَّمَ الفَواحِشَ، وما أحَدٌ أحَبَّ إلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ.» أخرجه البخاري (٥٢٢٠) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٠)، ولولا ما ألّم بهذه الأمة من نكبات في دينها وأخلاقها ما احتجنا إلى التنبيه إلى هذه المسلّمات ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أخلاقه، لكنه علم أن اختلافه عمن يحيطون به يجذب إليه الأنظار، وأن مِن قومه مَن يرجو أن يجد له أو لأهل بيته عيبًا، ولا سبيل لعلاج فساد هذا المجتمع ولا إلى إقصاء مترفيه الفاسدين المفسدين، وأن الأَولى أن يحتاط ويحذر، ثم إن بصره بطباع الناس وأخلاقهم جعله لا يأمن الاختلاط وما يمكن أن يُحدثه في نفوس الرجال والنساء من آثار وما يؤدي إليه من أخطار، وقد عفَّ عن غيرها من النساء[١]، وليس من الظلم أن يحوط عفّتها بما يحفظها[٢] في مجتمع فاسد خضع رؤساؤه لشهواتهم فسيطرت عليهم نساؤهم[٣]، ثم تجرأت فيه نساء أخريات فأتين بما يُذمن به فمنهنّ من اكتُشفت فحبست في بيتها ومنهنّ من لم تُكتشف.

فلما كان ذلك كذلك كان مصدر سعادته وقرة عينه عند عودته

---

(١) وأدلة عفافه كثيرة منها أنه لا يذهب لجارته الفقيرة برغم غيرته الشديدة بل يرسل زوجه التي لا تخرج إلا لضرورة، وأنه لم يذكر في شعره أية مغامرات نسائية له كما اعتاد الشعراء، وكما فعل أحد أقرب أصدقائه إليه وأحرصهم عليه كما سنرى في التعليقات القادمة، وكان حريصًا على اختيار العفيفة المتصاونة، وهذا دأب كل عفيف، فلما وجدها تزوجها وهذا دليل عفافه وحرصه على أعراض الناس.

(٢) لا نسعى لجعل الشرح مسرحًا لعرض رأينا أو الدعوة إليه، وإن كنا نؤمن بهذا ونرجو أن يؤمن الناس كلهم به، ونرى فيه حلًا لمشكلات كثيرة، ولكن ليس هذا ما قصدنا إليه، إنما نريد إزالة ما يمكن أن يطرأ من لَبس أو ما يمكن أن يراه بعض الناس تناقضًا مستندين إلى ما استنبطنا من أخلاقه وأخلاق مجتمعه.

(٣) راجع شرحنا للامية العرب.

في المساء أن يجدها في انتظاره كما يجد كل رجل سعيد زوجه، وألّا يُضطر لسؤالها: أين ظللتِ[1]؟ ثم هو لم يَؤُبْ سعيدًا بل آب مآب السعيد؛ إذ لا يليق به أن يشبه ولو قليلا ذلك الذي انتقده بعد ذلك بأنه خالف دارية متغزّل، بل يعود إلى بيته للراحة كما يعود الرجال السعداء، وبهذا يؤكد لنا أنه لا يمدح في الأساس وجود هذه الصفات كلها فيها على هذا النحو الموصوف، ولكنه يمدح طاعتها له ونزولها على رغباته، لأن النتيجة النهائية المترتبة على هذا كله سعادته وراحة باله، أما هي فإنها امرأة حرَّة لا تقع فيما تعاب به؛ كانت كذلك ولا تزال، وهذا ما جذبه إليها، وليس يعيبها أن تخرج في حاجة أو أن تذهب في زيارة أو ما شابه، لكن طالما أن هذا يُريحه فلا بأس بأن تلتزم به، وقد تأكّد لنا الآن أن اللوم المذكور في البيت الثامن لومه هو إياها إن لم تفعل ما يأمرها به، واللوم أشد من العتاب وأقوى، ولا شك في أن تجنبها إياه لم يحدث إلا بعد أن استعمله معها مرةً أو أكثر فعرفتْ من خطئها أنها يجب ألا تكرره.

١٢- فَدَقَّتْ وَجَلَّتْ وَاسْبَكَرَّتْ وَأُكْمِلَتْ
فَلَوْ جُنَّ إِنْسانٌ مِنَ الْحُسْنِ جُنَّتِ[2]

(١) على هذا التفسير لا تكون (قرة) مفعولا به أو منصوبة على نزع الخافض، كما جاء في شرح المفضليات للشيخ أحمد شاكر والأستاذ عبد السلام هارون.

(٢) دقت: صغرت، جلّت: عظمت، اسبكرّت: استطالت واعتدلت.

لم يكن همُّ الشنفرى من المرأة أن يتلهّى بها ويتمتّع، كما كان يفعل أصحابه وكثيرٌ من الناس[1]، بل كان غرضه أن تقرّ بها عينه، وتكتمل بها نفسه، وقد علم أن هذا لا يمكن إلا أن تكون هذه المرأة خالصة مخلَصة له هو وحده، وأنها لن تكون كذلك إلا إذا كانت ذات فطرة سوية وأخلاق أساسية حميدة، وقد يحتاج مع ذلك إلى أن يرعاها بحرصه وغيرته حتى لا تنكص أو تُفتن أو يُساء بها الظن فتوصم بما ليس فيها، ثم يكون في وصمها بالسوء إساءة له، وهذا ما لا يمكن أن يقبله.

ولم يُسلّمْ بما تحمل البشرَ عليه طباعُهم، لأنه لم يكن يخضع لطباعه الإنسانية بل كان يواجهها ويجاهدها حتى تستقيم وتعتدل، وهذا ما شجّعه على أن يحيط بغيرته وحرصه طباع زوجه حتى أولَتْه ثقتها وركنت إليه واستقامت على نهجه فارتاح لذلك، وظهرت له محاسنها الخَلْقية.

فمحاسن المرأة عنده إذن تبدأ من أخلاقها وأسلوب معاملتها،

---

(١) تأمّل مثلا قول صديقه تأبط شرًّا: إني إذا خُلَّةٌ ضنَّتْ بنائلها وأمسكت بضعيف الوصل أحذاقِ/ نجوتُ منها نجائي من بجيلة إذ ألقيتُ ليلةَ خبت الرهط أرواقي. وقد تورّع الشراح في فهمه وأحسنوا الظن بقائله فأساءوا الفهم، ولو أنهم أساءوا ذاك لأحسنوا هذا. وقد تحتاج إلى استرجاع هذين البيتين عند شرحنا الأبيات التي وُصف بها تأبط شرًّا في هذه القصيدة.

ثم من ثقتها به وركونها إليه، ثم ينظر بعد ذلك إلى خِلقتها[1]، وهي المراحل التي مر بها من أول القصيدة حتى وصلنا لهذا البيت، لكنه لا يُحسن أن يتغزل، أو لا يريد أن يُؤْثَرَ عنه تغزل، لذلك يختصر في بيت واحد فقط اختصارًا شديدًا الصفات الأنثوية الجميلة المحببة كلها دون تفصيل يُصوّر به تلك التي حرص على إخفائها، فقد دقّ منها ما يُستحب دقته في المرأة، وعظم منها ما يُستحب فخامته فيها، وهي مع هذا طويلة[2] معتدلة القوام، وهذا هو الكمال بعينه، كمال الظاهر والباطن؛ فهي في المجمل بارعة الحسن حتى لو أن شدة الحسن تُفقد العقل لفقدت عقلها[3].

---

(١) وهذا ما تجده معكوسًا في تصويره الختامي البديع للامية العرب للوحة الأرواي من حوله التي بدت له كعذارى عليهن الملاء المذيل، ثم في ثقتها الكاملة به وركونها التام إليه حتى كأنه وعلها الأعصم الأقرن، وقد وجد في هذا الاستسلام الهادئ البسيط ما يُرضيه ويشفي صدره، ووجد فيه أيضًا ختامًا مريحًا لملحمته العظيمة، **فكأنّ هذه القصيدة ولامية العرب خطٌّ زمنيٌّ واحدٌ يبدأ بنهاية علاقة قامت على أساس استسلام واثق به وانتهى ببدء علاقة تقوم على الأساس نفسه**، ومن الطبيعي أن يكون مختلفًا في اللامية عنه هنا بسبب أنه لا يتوقع من الأراوي ما يتوقعه من المرأة العربية؛ فقد رأى منها في البداية شبها بينها وبين المرأة ذكّره بها، ثم لما ركنت إليه شعر كأنه منها وكأنها منه.

(٢) لن يمدح طولها إلا أن يكون طويلا، وهو ما يوافق قوله في لامية العرب: وآلف وجه الأرض عند افتراشها بأهدأ تنبيه سناسن قحل.

(٣) وليس المقصود بـ (جُن) سُترت كما قيل، لأنه كان يسترها ما استطاع، ولا نسبتها للجن لأنه متكلف بعيد.

وبهذا البيت دفع الشنفرى تهمة أخرى عن نفسه وعن زوجه؛ فلو أن راهبًا أراد مدح راهبة لما زاد على وصفها بما وصف به الشنفرى زوجه في الأبيات السابقة، ثم ربما قيل: إنها لم تقبل الاستبداد الذي قبلته إلا لأنه لا مطمع فيها لأحد، فسهل على الشنفرى منعها، ولم يشتدّ عليها هذا المنع[1].

١٣- فَبِتْنا كَـأَنَّ الْبَيْتَ حُجِّرَ فَوْقَنا
بِـرَيْـحـانَـةٍ رِيـحَـتْ عِـشـاءً وَطُـلَّـتِ[2]

١٤- بِرَيْحانَةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةَ نَـوَّرَتْ
لَها أَرَجٌ ما حَوْلَها غَـيْـرُ مُسْنِتِ[3]

وكما بدأ الشنفرى بذكر البَيات (تبيت بعيد النوم) عند حديثه عنها بعد زواجهما -ينهي أيضًا هذه الجملة من صفاتها بذكر البَيات (فبتنا)؛ كأنه أراد أن يتتبع سير يومها كله من الليل إلى الليل الذي

---

(١) والحقيقية أن هذا البيت يشبه إلى حد كبير البيت الرابع عشر في لامية العرب (البيت المظلوم)؛ فقد جاء الآخر أيضًا وحيدًا في غرضه، ولم يعبأ الشنفرى بمؤاخاته بما يعضده، وجاء دفعًا لتهمة، ولم يكترث الشنفرى بالضرورة الفنية التي تضطر غيره من الشعراء لإعطاء أغراضهم حقوقها.

(٢) **حُجّر**: أُحيطَ، **ريحت**: أصابها ريح والمقصود أن هذه الريح نشرت رائحتها، **طُلّت**: أصابها الطلّ (الندى).

(٣) **حلية**: اسم واد، **نوّرت**: أزهرت، **الأرج**: انتشار الريح، **مسنت**: مجدب.

يليه، لكنه فضّل هذه المرة أن يُعبّر بالماضي، لأن هذا كله قد صار الآن من الماضي الذي لا سبيل لاستعادته.

وقد بدأ من الليل لأن وقته معها لا يبدأ عادة قبل المساء يدل على ذلك قوله: (إذا هو أمسى آب...).

فإذا هو أمسى فعاد إلى بيته فوجدها في بيتها لم تبرحه أو وجدها خرجت لقضاء بعض حاجاتها الضرورية ثم عادت مسرِعة مبالِغة في عدم التواصل مع أحد من الناس -رضي وطابت نفسه وظهرت له محاسنها على أكمل ما يكون وكان وقته معها ووقتها معه أسعد وقت وأهناه[1]، وكان بيتهما كأنه قطعة من الجنة أحيطت بنبات طيب الرائحة نبتَ في أرض طيبة مُباركة غير مجدبة وغير مطروقة لوعورتها، وقد نشر رائحة هذا النبات ووزعها في أرجاء البيت ريح طيبة باردة، بعد أن نزل عليه الطَّلّ[2].

هذه قسمة عدل؛ تتركُ من أجله شيئًا فيعوّضها بأحسن منه، تزهد في الخروج فيجعل بيتها أفضل من أي مكان كان يمكنها أن

---

(١) لذلك قال: (فبتنا).

(٢) وقد تناقل الشراح أن ذكره وقت العشاء لأن ذلك يكون أبرد للريح، وذكر ذلك الوادي لأنه حَزَن وأن نبات الحَزَن أطيب ريحًا من نبات السهل وذكره عدم جدب المنطقة لأنه أطيب لها وأحسن.

تخرج إليه، وهو مكان مستور، وهي تحب الستر[١].

ولكن هذا البيات قد يكون بياتًا على الطوى، لأنه يعدم أحيانا ويغنى وإنما ينال الغنى ذو البعدة المتبذّل[٢]، ولأن الفقر قد يضطرها إلى إهداء غبوقها لجارتها، ولعلها لم تفعل ذلك بغبوقها هي فقط، ولعله لم يذكر غبوقه لأن الجميع يعرف أنه لا يستفزه إلى الزاد حرص أو فؤاد موكّل[٣]، وهي تعرف ذلك، ولذلك ربما هان عليها أن تُهدي غبوقه هو أيضًا دون إذن منه، وهان عليه ألا يسأل عنه، ولكنه لم يستطع تجاوز سماحها بغبوقها لأنها أقل تحمّلًا منه وليستْ تُلام أو تُعاب إن ضنّت بطعامها.

ثم إن هذا البيات بهذه الصفة دليل على توافقهما الشديد ودليل على حبٍّ شديد له يدفعها لتجاوز الجوع والغضب من غزواته وفتكاته التي تزيد أعدائه حتى تضطر أحيانا إلى مجابهته بما يكره[٤]، وكذلك يدفعها إلى تجاوز غيرته وحفاظه الشديدين إلى الحرص على إسعاده؛ إنه حب كبير لا يعكر صفوه شيء.

(١) تحب الستر لما وصفها به في البيت السادس، ومستور لتعبيره بـ(فوقنا) مع أنه محاط بالنبت الذي وصفه.

(٢) كما وصف حاله في البيت الثاني والخمسين من لامية العرب.

(٣) كما وصف نفسه في البيت الرابع عشر من لامية العرب.

(٤) تأمّلْ القطعةَ الغنيةَ المشارَ إليها سابقًا: إذا أصبحتُ بين جبال قوٍّ... وتأمّلْ أيضًا قصيدته التي مطلعها: دعيني وقولي بعد ما شئتِ إنني سيُغدى بنعشي مرة فأغيّبُ. وسنوضح هذا الأمر أكثر في تعليقنا على البيت التالي.

ثم إنه لم يجد شبيهًا بها أقرب لنفسه وأدل على حالها وحاله بها من ريحانة ريحت عشاء وطلّت، وهذه الريحانة كانت من أرض طيبة وعرة؛ فكان لرائحتها أريجٌ طيّبٌ، وهذا دليل على فطرته السويّة التي لم يُغيّرها الانتقام(١).

لكن ما السبب الذي يدفع امرأة عاشقة وفي عقل أميمة وحزمها إلى الخروج من هذه الجنة إلى ما لا تعلم؟

في سبيل الثأر

١٥- وَباضِعَةٍ حُمْرِ الْقِسِيِّ بَعَثْتُها
وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً وَيُشَمَّتِ(٢)

لم يُتمّ الشنفرى خبر أميمة، بل تركَنا مع استفسار محيّر: لمَ خرجتْ أميمة من تلك الجنة التي وصفها الشنفرى؟ وعادة الشنفرى أن يُحكِم بناء قصيدته(٣)، فلا بد إذن في هذا البيت من إجابة تربطه بما سبقه.

---

(١) دليل فطرة سوية لأن حبه للمرأة ليس حبًّا شهوانيًّا، وكذلك لأنه قد أحب الريح الطيب وهو قريب مما وصف به سيد الخلق صلى الله عليه وسلم نفسه الشريفة بأنه قد حُبب إليه النساء والطيب، ووصفه زوجه بالريحانة في الأرض الطيبة على النقيض تماما من قوله صلى الله عليه وسلم: «إياكم وخضراء الدمن...» الحديث.

(٢) **باضعة**: بضعة رجال، **يشمّت**: يخيب.

(٣) راجع شرحنا للأبيات السابقة وشرحنا للامية العرب.

يذكر الشنفرى في هذا البيت وما تلاه خبر غزوة قام بها في بضعة رجال من أصحابه من ذوي الخبرة الذين احمرّت قسيهم من القِدم ولكثرة ما تعرضت له من الشمس والمطر[1]، لم يكن غرضها السطو بل الانتقام، وليس الانتقام من عدو مشترك بل من أحد أعداء الشنفرى فقط؛ فهو الذي بعثها[2].

هذه غَزاةٌ الغرضُ منها الانتقام لا السطو فما الداعي لذكر الغُنم والشِّمات في الشطر الثاني؟ ثم إنه انتقم كما أراد وعاد وأصحابه سالمين فلا داعي إذن لذكر الشِّمات تحديدًا في هذا السياق[3] إلا أن يكون شِماتُه هو فقده أميمة بسبب هذه الغزاة[4]. (ومن يغزُ يغنم

(١) هذا تعليل الشرّاح القدامي وهو الحق، ووصف الشنفرى قسي أصحابه دون غيرها من الأسلحة يردنا إلى ما انتبهنا إليه عند شرح الأبيات الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من لامية العرب، فراجعْه.

(٢) وسيؤكد هذا في البيت التالي.

(٣) أيكون ذلك الأعرابي الذي صحح للأصمعي قراءته الآية الثامنة والثلاثين من سورة المائدة أفهم للعربية من الشنفرى! لا أظن هذا، ولا أظن أن الشنفرى ذكر الشمات إلا للغرض المذكور في الشرح. وقصة الأصمعي والأعرابي كما رواها الواحدي في الوسيط في تفسير القرآن المجيد (طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ٢/ ١٨٥): قال الأصمعي: كنتُ أقرأ سورة المائدة وبجنبي أعرابي، فقرأتُ هذه الآية فقلتُ: نكالا من الله والله غفور رحيم سهوًا فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلتُ: كلام الله. قال: أعد. فأعدت: والله غفور رحيم. فقال: ليس هذا كلام الله. فتنبهتُ وقرأتُ: (والله عزيز حكيم). فقال: أصبتَ؛ هذا كلام الله. قلتُ له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلتُ: فمن أين علمتَ أني أخطأتُ؟ قال: يا هذا، عزَّ فحكمَ فقطعَ، ولو غفر ورحم لما قطع.

(٤) إذا تأمّلتَ القطعة التي مطلعها: (إذا أصبحتُ بين جبال قوٍّ) فستجد أنها كانت شديدة =

مرة ويشمّت) أي إنها إحدى نتيجتين إما غنم وإما شِماتٍ، وقد انتقم حتى رفع اللوم عن قبيلته التي خرج منها[1]، لكنه خسر أميمة.

١٦- خَرَجْنا مِنَ الْوادي الَّذي بَيْنَ مِشْعَلٍ
وَبَيْنَ الْجَبا هَيْهاتَ أَنْشَأْتُ سُرْبَتي[2]

كانت الأخبار التي تناهت إلى سمع الشنفرى أن واتريه قد خرجوا في جماعة من قومهم يريدون الحج على عادة العرب قبل الإسلام، فأخبر بعض أصحابه فوعدوه أن يعينوه بأنفسهم وسلاحهم، ثم لما حان الوقت خرجوا معه مسرعين، فمضى يطوي وإياهم الأرض طيًّا ليدركوا أعداءه

= الإنكار عليه والمجادلة له، و أنها استخدمت كل ما تملك من أسلحة، فنشزت، وهددت بهجره، وأغلظت له في القول، وتجرّأتْ حتى طالبته بطاعتها في هذا الأمر مثلما تطيعه هي في كل أمر، ثم اقرأ مثلا قصيدته التي بدأها بقوله: (دعيني وقولي بعد ما شئتِ إنني سيُغدى بنعشي مرة فأغيّبُ) ثم شرع في شرح إحدى غزواته -وستجد أن مقاومتها مع الوقت ضعفت حتى لم يبق منها إلا النهي، ثم جاءت هذه الغَزاة فكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، فهذا سبب ذكره الشمات.

(١) كما سنرى.

(٢) **مشعل**: موضع بين مكة والمدينة من الرويثة. (انظر: الحموي، معجم البلدان، ٥/ ١٣٤)، **الجبا**: شعبة من وادي الجيّ عند الرّويثة بين مكة والمدينة (انظر: الحموي، معجم البلدان، ٢/ ٩٧)، **السربة**: الجماعة. وقد قال الشراح في معنى (أنشأتُ سربتي): أظهرتُهم من مكان بعيد، ويرون أنه يصف بهذا البيت بُعد مذهبه في الأرض طلبًا للغنيمة. وليس بشيء، والأبيات تدل على طلب الثأر لا الغنيمة.

قبل دخولهم حدود الحرم وإحرامهم؛ فقد كان للحرم رهبة في نفوس العرب قبل الإسلام، لكنهم لما وصلوا إلى ذلك الوادي (الذي بين مشعل وبين الجبا) علموا أن القوم قد سبقوا وأنه لا سبيل لإدراكهم الآن قبل إحرامهم فأراد أصحابه أن يثنوه عن عزمه، وأن يذكّروه عادات العرب ومخاوفهم وأنه لا سبيل الآن للعدو على أولئك القوم، لكنّ الشنفرى أصمّ أذنيه وأبى إلا طلب أعدائه فاعترضوا بقلة الزاد، فأصرّ، فدفع إصرارُه صاحبَه تأبّط شرًّا إلى فرض بعض التدابير الاحترازية، فبعث بفعله الثقة في نفوس أصحابه الذين علموا أنه لن يدبّر لشيء إلا وهو واثق بأنه ممكن، ولذلك مضَوا لإدراك غرض الشنفرى برغم خوفهم؛ فهذا سبب قوله: هيهات أنشأت سربتي! ونتيجته أيضًا.

١٧- أُمَشّي عَلى الْأَرْضِ الَّتي لَنْ تَضُرَّني
لِأَنْكِيَ قَوْمًا أَوْ أُصادِفَ حُمَّتي[١]

مضى الشنفرى في طريقه غير عابئ بمخاوف صحبه؛ فإنه وإن كان قد دخل حدود الحرم ليعدو على بعض من به إلا أن الأرض لن تضرّه، ربما لأنه يرى نفسه صاحب حق، وربما لأنه لم يسمع من

---

(١) أنكي قومًا: أصيب منهم، أصادف: ألاقي، حمتي: منيّتي.

قبل أن هذه الأرض الطاهرة قد أضرّت بمن مشى عليها مضمرًا شرًّا[(١)]، وربما لم يرد إلا أن يُطمئن أصحابه، فمضى يدفعه الأمل بإدراك ثأره، ولا يخيفه الموت الذي يتربص به بلا شك كما يتربص هو بأعدائه، ربما يتربص به هناك أو في مكان آخر، ربما اليوم، وربما في يوم آخر، هذا كله لا أهمية له.

١٨- أُمَشّي عَلى أَيْـنِ الْغَزاةِ وَبُعْدِها
يُقَرِّبُني مِنْها رَواحــي وَغَــدْوَتــي[(٢)]

ولا يدفعه هذا الموت الذي ينتظره إلى التراخي عن إدراك ثأره، بل يواجه في سبيل إدراكه مشاقًّا لا يقدر على مواجهتها إلا أولو العزم من الرجال؛ فيقطع القفار والمفاوز البعيدة بدأب واصلا ليله بنهاره حتى يصل إلى غرضه في أسرع وقت[(٣)].

---

(١) ربما كان ذلك قبل عام الفيل، لا نعلم على وجه الدقة متى كان، لكننا نعلم أن أبرهة ما كان ليُقدم على ما أقدم عليه لو كان التاريخ قد نقل إليه حوادث سابقة حاق فيها بالمعتدين سوء عملهم.

(٢) **أين**: تعب ومشقة، **الغَزاة**: الغزوة، **الرواح**: السير بالعشيّ، **الغَدوة**: اسم مرة من الغُدُو وهو السير ما بين الفجر وطلوع الشمس، وقد كنتُ أظن كمعظم من تعرض لهذه القصيدة أن الصواب (غُدوة) بالضم حتى نبهني إلى الصواب الدكتور محمد جمال صقر أحسن الله إليه! وذِكره الرواح قبل الغدو لغرض سيُفصِح عنه فيما بعد.

(٣) وهذا دليل على صحة ما وصلنا إليه عند شرح هيهات أنشأتُ سربتي، ثم هذا دليل على أنه قد تعمّد التأخر في الخروج لهذه الغزوة كما سنبين فيما بعد.

مزاح ولهو

١٩- وَأُمُّ عِيالٍ قَدْ شَهِدْتُ تَقوتُهُمْ
إذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتَحَتْ وَأَقَلَّتِ[١]

كانت غَزاة شاقّة بسبب بُعدها وتعجّلهم إدراك أعدائهم قبل إحرامهم، وكانوا مع ذلك أو بسببه قليلي الزاد، ثم أبى الشنفرى إلا تتبع أعدائه برغم إحرامهم فاختلفوا، وكان أحد أسباب اختلافهم أن الزاد لن يكفيهم، فلما أصرّ الشنفرى أسرع تأبط شرًّا لتدارك الأمر فاستبدّ وحده بأمر زادهم، وكان تأبَّطَ شرًّا من أقرب أصحاب الشنفرى إليه وأحرصهم عليه، وكان أصحابه يدينون له بالاحترام والتوقير، وكان حازمًا أريبًا، لذلك كان يعطيهم أقل ما يمكن من الزاد، فمازحه الشنفرى بأن دعاه (أُمَّهم)، ربما رأى المزاح ضروريًا لتهوين تلك المشاقّ على نفوس الغُزاة وشغلهم عن خوفهم، أو ربما جاء عفوًا لِما كانوا يرون من اهتمام تأبط شرًّا وحرصه واقتصاده وحسن تدبيره[٢]، ثم أراد الشنفرى أن يجعل مزاحهم هذا جزءًا من قصيدته، فقال إنه شهد في هذه الغَزاة أمًّا لعيال كانت عجيبة لبخلها على عيالها

(١) تقوتهم: تطعمهم، أوتحت: أقلّت.

(٢) وربما أيضًا لسبب آخر سنعرض له في موضعه.

بالطعام، ولم يذكر أسبابًا على سبيل التشويق وإبعادًا في الظَّرف والمازحة؛ إذ ليس من عادة الأم أن تبخل على أبنائها بالطعام، فأي قسوة هذه[1]!

٢٠- تَخافُ عَلَيْنا الْعَيْلَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ
وَنَحْنُ جِياعٌ أَيَّ آلٍ تَأَلَّتِ[2]

يُغالط الشنفرى إبعادًا في المزاح فيقول: إن تلك الأم كانت تقتر عليهم خوفَ أن يحتاجوا إلى طعام إذا انتهى ما معهم، لكنّهم جائعون

(١) جاء في شرح المفضليات للشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ عبد السلام هارون ما نصُّه: «والأزد تُسمي رأس القوم وولي أمرهم (أمًّا). وفي اللسان عن سيدنا الإمام الشافعي رضي الله عنه: «قال العرب تقول للرجل يلي طعام القوم وخدمتهم: هو أمهم». واستشهد الإمام الشافعي رضي الله عنه بهذا البيت». انظر المفضليات، ص١١٠. وقد راجعتُ لسان العرب فوجدتُ هذا الذي نَقَلاه عن سيدنا الشافعي رضي الله عنه وأرضاه دون زيادة، ووجدتُ مثله لابن دريد، واستشهد عليه بالبيت نفسه دون زيادة. انظر: لسان العرب، دار صادر، ١٢/ ٣١. وربما كان ذلك كذلك إذا كان عليه شاهد آخر يُثبته ويدلّ عليه، أما الاعتماد على هذا البيت وحده فليس كافيًا لما في أسلوبه وأسلوب الأبيات الثلاثة التي تليه من ممازحة ظاهرة واضحة، ثم إن تأبط شرًّا لم يكن رئيس القوم؛ فإن الشنفرى هو الذي بعثهم لهذه الغزوة، ثم إنه هو الذي أصرّ على تتبع أعدائه برغم تجاوزهم حدود الحرم؛ فالشنفرى هو الرئيس على الحقيقة، وليس تأبط شرًّا إلا الموكل إليه تدبير طعامهم لما عُرف من صفاته أو نزولا على رغبته، ثم إنْ كان من المعروف أن الرجل الذي يلي طعام القوم هو أمهم فلماذا لم يقل: وأم عيال قد شهدتُ يقوتهم؟ فالمرأة يقال لها زوج وتخاطب أو يُشار إليها بضمير المؤنث، وسواء صحّ ذلك أو لم يصح فإن الشنفرى هنا إنما يُمازح صاحبه.

(٢) **العيل**: الحاجة، **آل**: سياسة، **تألّت**: ساست.

بالفعل والحاجة إلى طعامها قائمة، فكيف تحرمهم الآن خوفًا من أمر هو واقع بهم بالفعل في وقت حرمانهم وبسببٍ من هذا الحرمان!

إنها إذن قسوة مذمومة غير مبررة!

لكن الشنفرى وأصحابه كانوا يعلمون جيدًا أن صاحبهم لم يكن يخشى عليهم الجوع، إنما كان يخشى عليهم أن يُعجزهم الجوع أو أن يقتلهم، فاختار أخفّ الضررين، اختار الحياة مع الجوع على أن يتركهم يشبعون الآن ثم يُعانون بعد قليل في صحراء قفر مهلكة.

٢١- وَما إِنْ بِها ضِنٌّ بِما في وِعائِها
وَلٰكِنَّها مِنْ خِيفَةِ الْجوعِ أَبْقَتِ[١]

لا ينسى الشاعر أن هذا الشعر يجد دائما طريقه إلى كل زمان وكل مكان، ولا ينسى كذلك أن كلمة واحدة في بيت قد تَصِم صاحبها طول عمره وبعد موته بما يكره، لذلك يأبى إلا أن يذكر عذر صاحبه الحقيقي حتى يعرف السامع أنه إنما كان يمزح، وربما كان هذا أحد الأسباب التي دفعته للإصرار على الإشارة إلى صاحبه بضمير المؤنث طوال القصيدة وإلى ألا يذكر اسمه حتى لا يرتبط بمزاح يشبه الهجاء.

يتراجع الشنفرى عن مغالطته ويستدرك بنفي البخل عن (تلك

---

(١) ضِن: بخل.

الأم)، ويذكر سبب تقتيرها على عيالها؛ فإنها لم تقتر عليهم بخلا بالزاد، بل لتحميَهم من الجوع المُهلك، وبرغم إصرار الشنفرى على ألا يكشف لنا شخصية تلك الأم يقترب من كشف كنهها وتهيئة المتلقي لمعرفة أنها ليست امرأة حقيقية.

٢٢- مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُرُ السِّتْرُ دونَها
وَلا تُرْتَجى لِلْبَيْتِ إِنْ لَـمْ تُبَيِّتِ[١]

ثم يقرر الشنفرى أن يقترب أكثر من كشف حقيقة تلك الأم العجيبة بهذا البيت؛ فإنها متصعلكة، وهذا ما لم يُروَ مثله من قبل قط، ثم هي لا تستتر حياء كعادة نساء العرب، بل لأنها قصيرة فلا يقصر عنها الستر[٢]، ومع تصعلكها وعدم حيائها الأنثوي العربي

(١) **مصعلكة**: متصعلكة (متشبهة بالصعاليك)، **تُبيِّت**: تهاجم أعداءها ليلًا. وقد فسّر مَن تعرض لهذه القصيدة (مصعلكة) بأنها صاحبة صعاليك، وهذا ما يوجبه بناء الكلمة، لكن الشنفرى لم يقصد صحبة تأبط شرًّا للصعاليك، إنما قصد أنه واحد منهم، ولأنه اختار أن يعبر عن صاحبه بضمير المؤنث اختار أيضًا أن يقول إن تلك الأنثى تتشبه بالصعاليك، لأن العرب لم تعرف امرأة تصعلكت من قبل قطّ، وما كان لهذا أن يكون، وفسّر أغلب الشراح (لا يقصر الستر دونها) بأنه كناية عن انكشاف أمرها، وهو ما لا يمكن قبوله بل إن ما أثبتناه في المتن أكثر مناسبة لسياق الأبيات؛ إذ إن انكشاف أمر الصعلوك يهوّن على أعدائه حصاره والإمساك به أو قتله لوقته، وهم عادة كثير وهو واحد، وأمر تأبط شرًّا مع هذيل معروف واختيار الصعاليك تبييت أعدائهم ليس إلا استغلالا لستر الظلام إياهم حتى إذا باغتوهم أصابوهم وشرّدوهم.

(٢) لو كان الشنفرى قصيرًا لما جاز له أن يسخر من قصر صاحبه، راجع تعليقنا على البيت الثاني عشر من هذه القصيدة والبيت الثالث والأربعين من اللامية.

الطبيعي أو عدم أسبابه -فإنها لا تأوي إلى بيت إلا أن تكون مهاجمة لساكنيه والأصل في المرأة العربية أن تقرّ في بيتها[(١)].

لم يترك الشنفرى بهذا البيت شكًّا في أنه لم يعنِ أمًّا كباقي الأمهات، ولكنه يمازح أحد أصحابه، ثم إن هذا الصاحب من أحب أصحابه إليه وأقربهم منه، برغم ما بينه وبين الشنفرى من اختلافات كثيرة ومن هذه الاختلافات أن ذلك الصاحب كان يكره أن يتزوج وكان الشنفرى يختلف معه في ذلك، لأن الشنفرى -كما قلنا- كان يحب أن يكون له بيت وأسرة مستقرة؛ «إذ لا تكملُ الرجولةُ بتكوينها حتى تكمل بمعاني تكوينها،

(١) قوله تعالى: (وقرن في بيوتكنّ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) (الأحزاب: ٣٣) لا يعني أن المرأة العربية لم تكن كذلك قبل الإسلام بل كانت كذلك، ولكن الإسلام لما جعل النساء شقائق الرجال، واعترف بفضل المرأة ودورها أراد أن يؤكد أن دورها الرئيس في مجتمعها كما كان، في بيتها حيث مَغْرس جذور المجتمع وامتدادها، ثم لما ذكر الجاهلية ذكرها عند النهي عن التبرّج، ولا يمكن تخيل نهي المرأة المستورة في بيتها عن التبرج فيه، إنما تُنهى عن التبرج عند الخروج (وقد كان في الجاهلية من فعل الإماء لا الحرائر الكريمات والدليل إنكار السيدة هند بنت عتبة عند أخذ البيعة أن تزني الحرة؛ فالزنى بمقدماته كان من عمل الإماء، ولا يقاس على الاستثناءات والأخطاء الفردية، وإن أبيتَ إلا القياس فقس لكن لا تنس أنها كانت جاهلية، وأن الشنفرى كان يأبى هذا كله، أما ما قلناه عن مجتمع الشنفرى فإنه كان مجتمعًا من مجتمعات عربية أخرى كثيرة مختلفة، وكانت له ظروفه الخاصة راجع أحد تعليقاتنا على البيت العشرين من لامية العرب)، وربما كان ذكر الجاهلية عند النهي وعدم ذكرها عند الأمر، لأنه إنما أمرهم بما تستقيم به طبيعة الحياة في الإسلام وفي أي جاهلية.

وأخصُّ هذه المعاني إنشاء الأسرة والقيام عليها، أَيْ مغامرة الرجل في زمنه الاجتماعي ووجوده القومي؛ فلا يعيش غريبًا عنه وهو معدود فيه، ولا طُفيليًّا فيه وهو كالمنفيِّ منه، ولا يكون مظهرًا لقوة الجنسِ القوي هاربةً هروبَ الجبنِ من حمل ضعف الجنس الآخر المحتمي بها، ولا لمروءة العشير متبرئة تبرؤ النذالة من مؤازرة العشير الآخرالمحتاج إليها، ولا يرضى لنفسه أن يكون هو والذل يعملان في نساء أمته عملًا واحدًا، وأن يصبح هو والكساد لا يأتي منهما إلا أثر متشابه[1]»، لكن صاحبه ذلك لم يكن يرى في المرأة غير أداة للهو والعبث لا غير، وقد أصمّ أذنيه عن رأي الشنفرى وإن لم يستطع دفعه ونقضه، لذلك كان الشنفرى لا يترك فرصة يستطيع أن يعيب عليه فيها إلا فعل إيقاظًا لضميره واستنهاضًا لهمته، كما فعل في هذا البيت؛ فإن صاحبه لا يرتجى للبيت إن لم يبيت[2].

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١/ ١٩٣، ١٩٤.

(٢) كان مما علّقنا به على البيت الرابع عشر هنا: «تأمّل مثلا قول صديقه تأبط شرًّا: إني إذا خُلَّةٌ ضنَّتْ بنائلها وأمسكت بضعيف الوصل أحذاقِ/ نجوتُ منها نجائي من بجيلة إذ ألقيتُ ليلةَ خبت الرهط أرواقي. وقد تورّع الشراح في فهمه وأحسنوا الظن بقائله فأساءوا الفهم، ولو أنهم أساءوا ذاك لأحسنوا هذا». ولم يذكر الشرّاح القدامي كيف استدلوا على أن المعنيّ بهذه الأبيات تأبط شرًّا دون غيره، لكنهم وُفقوا بلا شك في ذلك، ولعلهم لم يستدلوا بأنفسهم عليه بل نَقل إليهم تفسير ذلك رُواةُ الأبيات.

مدح صادق

٢٣- لَها وَفْضَةٌ فيها ثَلاثونَ سَيْحَفًا
إِذا آنَسَتْ أُولى الْعَدِيِّ اقْشَعَرَّتِ[١]

٢٤- وَتَأْتي الْعَدِيَّ بارِزًا نِصْفُ ساقِها
تَجولُ كَعَيْرِ الْعانَةِ الْمُتَلَفِّتِ[٢]

٢٥- إِذا فَزِعوا طارَتْ بِأَبْيَضَ صارِمٍ
وَرامَتْ بِما في جَفْرِها ثُمَّ سَلَّتِ[٣]



(١) **الوفضة**: جعبة السهام، **السيحف**: السهم العريض النصل، **آنست**: رأت، **العدي**: العدُو، **اقشعرّت**: استعدت للهجوم. خدع لفظ العدي الشراح وأصحاب المعاجم فظنوا أن علاقة ما بينه وبين العَدْوِ (بمعنى الركض) فدارت تفسيراتهم كلها في فلك العَدْو، لكن سياق الأبيات لا علاقة له بما ظنوا، بل معناه كما أثبتنا، وقد حمل الشراحَ ظنُّهم ذلك بكلمة العدي على تفسير (آنست) بأنها أحسّت، لا، بل: رأت ما يُذهب وحشتها.

(٢) **العير**: الحمار بنوعيه الأهلي والوحشي، **العانة**: القطيع من حمير الوحش، **المتلفت**: كثير التلفت. وقد أحسن الشرّاح إذ انتبهوا إلى أن تشبيه الشنفرى صاحبه بعير العانة إنما هو لسبب غير أنهم أخطأوا السبب؛ فقد قالوا إن الحمار أغير ما يكون فهو يتلفت لطرد الحمير عن أُتنه، وهو غيور، لكن ليس هذا هو سبب التشبيه به إنما اتفاقهما في القسوة الشديدة ومرارة النفس كما أثبتنا، انظر إلى قول الشاعر: أَفي السِّلْمِ أَعْيارًا جَفاءً وغِلْظَةً وَفي الحَرْبِ أَشْباهَ النِّساءِ العَوارِك. والأعيار جمع عير، فهي معروفة بالجفاء والغلظة وهو ما يوافق الصورة العنيفة القاسية التي رسمها الشنفرى لصاحبه.

(٣) **الأبيض**: السيف، **جفرها**: جعبتها، **سلّت**: أخرجت السيف.

٢٦- حُسامًا كَلَوْنِ الْمِلْحِ صافٍ حَديدُهُ
جُــرازًا كَأَقْطاعِ الْغَديرِ الْمُنَعَّتِ[١]

اعتورت هذه الغَزاة إذن ظروفٌ مختلفة لم تحدث من قبل اضطرتهم إلى أن يغيّروا من أسلوبهم قليلًا، فتقدّم تأبط شرًّا لحمل المسؤولية فحملها على أفضل وجه وأحسنه فاغتبط به صاحبه؛ إذ أنقذ الموقف بحزمه مرتين: مرة بنزوله على رغبة صاحبه في اتباع أعدائه إلى حيث ذهبوا غير عابئ بحُرمة المكان والزمان، وأخرى حين تحمّل مسؤولية الزاد غير عابئ بجوع أحد أو سخطه، فسعد به صاحبه، وتحركت مشاعره، وهاج ودّه فحرص على ممازحته، ثم خشي أثر هذا المزاح إن انتشر شعره فاستدرك بشرح موقف صاحبه الحقيقِ بأن يُصفيه الوُدّ.

كان البيت السابق وسطًا بين المزاح والجد؛ لم يخلص لهذا ولا لذاك، أما هذه الأبيات وما تلاها فقد خلصت للمدح الصادق اللائق بالشنفرى الذي لا يجامل أحدا واللائق كذلك بصاحبه

(١) **جراز**: قاطع، **أقطاع**: قِطَع (أجزاء)، **الغدير**: البركة من ماء المطر، **المنعّتِ**: الموصوف. ويجوز في حسام وجراز الرفع والجر والنصب، غير أن أغلب الروايات على الجر، ولقد أشار الأستاذ كارلوس يعقوب لايل إلى أن الكلمتين ربما قُرأتا منصوبتين في مخطوطة المتحف البريطاني، وقد فضّلتُ هذا مع ما في قافيته من تضمين؛ فكذلك فعل بقافية بيت اللامية العاشر.

الذي تتضاءل الكلمات أمام حقيقته.

انطلق الشنفرى في مدحه الخالص لصاحبه من النقطة نفسها التي انطلق منها مزاحه لمّا كان خالصًا، وهي على ما يبدو مفتاح شخصية تأبّط شرًّا؛ فإنه رجل مقتصد مدبّر، يقوم اقتصاده وتدبيره على التدقيق الشديد الحازم في كل شيء؛ فيضع كل شيء في مكانه دون إفراط أو تفريط؛ يعرف غايته فيطلبها بالوسيلة التي تناسبها؛ يعرف حبه للنساء، ويعرف أنه ليس إلا حبًّا جسديًّا شهوانيًّا، وأنه لا يمكن أن يحبس نفسه على امرأة واحدة أو على عدد منهنّ -فلا يتزوج بل يتنقل بينهن دون ندم أو أسف، فإن وقع اختياره على امرأة، لكن تأبّت عليه تدللًا أو تحشّمًا فرّ منها فراره من الأعداء مهما كان مقدار رغبته فيها[1]؛ فقد شابهت أعداءه حينما طلبت تضييع حياته، وما الحياة إلا وقت.

وبهذا التدقيق والاقتصاد وحسن التدبير كان هو الأنسب لمهمة توزيع الزاد وحفظه، وقد نجح في ذلك نجاحًا باهرًا أثار غبطة قائدهم، وبهذه الصفات نفسها وضع لنفسه سياسة ثابتة في الحرب؛ فحدد ما يحتاج إليه بدقة، وحدد كذلك خطواته فيها بدقة، وهذا في حال كان طالبًا لا مطلوبًا.

---

(١) راجع تعليقنا على البيتين الرابع عشر والثاني والعشرين من هذه القصيدة، وتأمّل تعبيره عنها بـ (خُلّة).

وأدواته كأدوات صاحبه الشنفرى[1]، وربما كانت كأدوات كل صعلوك في عصرهما، فؤاد مُشَيّع يرتاح ويأنس عند رؤيته لعدوه بعدما تعب في طلبه فيستعد أحسن استعداد ويُشمّر عن ساقه، ثم يشدّ عليهم جادًّا مجتهدًا بأداته الثانية سيفه، فإن قصد أحدًا منهم فإنه لا يتوانى عنه ولا يسمح له بالفرار ولا يتركه يبتعد كأنه عير العانة المتلفت؛ كلما فرّ تبعه.

يَثْبتُ أعداؤه ما شاء الله لهم أن يثبتوا، لكن هذه الصدمة الدموية العنيفة تضطر من استطاع منهم إلى الفرار، وكذلك كانت حروب العرب قديمًا، كانت كرًّا وفرًّا، وصاحبنا لا يني في قتل من يقصده منهم بعنف وبلا أية رحمة، فإذا فرّ مَنْ لم يقصده منهم من ميدان المعركة الذي اختاره بنفسه لم يتبعهم أخذًا بالأحوط؛ فربما أحاطوا به أو استدرجوه إلى حيث يمكنهم حصاره أو قتله بسهولة، فيغمد سيفه، ويلجأ إلى أداته الثالثة الأثير قوسه فيرمي أعداءه بها حتى يرميَ سهامه الثلاثين المُصْمى بها ذات الأنصل العريضة المستأصِلة، وفي ذلك الوقت يكون أنجادهم ومقدَّموهم قد أحاطوا به من بعيد من كل جانب، لكن عنفه ودمويته ودقة إصابته تمنعهم الاقتراب منه حتى يرمي بما في جعبته كله، فإن رماها كلها كرّوا حتى يطوقوه فيعود مرة ثانية إلى سيفه الجراز القاطع الأبيض كلون الملح وكلون

(١) راجع شرحنا على لامية العرب، الأبيات ١٠ - ١٣.

ماء الغدران إذا ضربه الهواء فقطّع صفحته وقسّمها إلى الأشكال التي يصف جمالها الشعراء والتي تعكس أشعة الشمس باضطراب كما تعكس صفحة سيفه شعاع الشمس وهو في يده.

ثم ماذا؟

٢٧- تَراها أمامَ الْحَيِّ حينَ تَشايَحوا
لدى مَنْكِبَيْها كُلُّ أَبْيَضَ مُصْلَتِ(١)

٢٨- تَراها كَأَذْنابِ الْحَسيلِ صَوادِرًا
وَقَدْ نَهِلَتْ مِنَ الدِّماءِ وَعَلَّتِ(٢)

جرت عادته إذن على أن يصدم مَن يهاجمهم صدمة قوية دموية عنيفة مروّعة وألا يرحم أحدًا منهم طالَهُ سيفُه، فإن هربوا رماهم

---

(١) **الضمير في (تراها)** عائد على تأبط شرا (أم عيال)، **تشايحوا**: عاقوا مهاجمهم، **المَنكِب**: موصل عظم العضد بالكتف، **الأبيض**: السيف، **المصلَت**: المجرد المُشهر. وفي لسان العرب أن شايَحَ مُشايَحَةً وشِياحًا بمعنى الحِذارُ والجِدُّ في كُلِّ شَيْءٍ، وقد فصّل شُراح أشعار الهذليين أكثر عند تعرضهم لقول أبي ذؤيب الهذلي رحمه الله يرثي ابن عمه: وعادية تُلقي الثياب كأنما تزعزعها تحت السمامة ريحُ/ وزعتهمُ حتى إذا ما تبددوا سراعًا ولاحت أوجه وكشوح/ بدرتَ إلى أولاهمُ فسبقتهم وشايحتَ قبل اليوم إنك شيحُ. فقال الشرّاح إن شايح في كلام هذيل الجد والحمل، وفي كلام غيرهم: المحاذرة والشفق. والحقيقة أنهم اجتهدوا فأخطأوا؛ فهذا رجل من الأزد يعيش في أخواله من فَهْم قد استعملها للمعنى نفسه الذي استعملها له أبو ذؤيب، وكذلك أساء أصحاب المعاجم -عفا الله عنهم- فهم معناها، إنما معناها ما أثبتنا والله أعلم.

(٢) **الضمير في (تراها)** للسيوف، **أذناب**: ذيول، **الحسيل**: صغار البقر، **صوادرًا**: منصرفة عن الماء بعد الشرب، **نهلت**: شربت لأول مرة، **علّت**: كررت الشرب.

بسهامه الفتاكة حتى تنفد، ثم يُحاط به من كل جانب، ويُضيَّق عليه حتى تكاد سيوف أعدائه تلمس منكبيه، فماذا يفعل؟

الحقيقة أن الشنفرى لا يذكر لنا ماذا يفعل تحديدًا، ويكتفي بذكر النتيجة مباشرة[1]، ثم لك أن تتخيل ما كان بين الصورتين، فبعد أن صوّر لنا صاحبه محاصرًا في موقف ضنك بين سيوف أعدائه الغاضبين الموتورين المتداعين عليه من كل جانب، وثب إلى صورة أخرى معتادة[2] لصاحبه نفسه بعد كل موقف من تلك المواقف الكثيرة المعتادة، فكما اعتاد أن يراه محاصرًا اعتاد أن يراه أثناء فرارهم بعد الغزوة وسيفه لا يزال في يده بُعيد أن انقطع عنه الطلب فكفّ عن العدو، واكتفى بالرَّمَل[3] وسيفه في يده حذار وصول أحد أعدائه إليه في غفلة منه، فيبدو السيف في يده أثناء رمله للناظر كذنب الحسيل يحركه يمينا ويسارا بعقب صدوره عن الماء.

---

(١) سيفعل ذلك مرة أخرى في هذه القصيدة، ثم في لامية العرب، راجع الأبيات ٥٥- ٦١ من لامية العرب من قوله: وليلة نحس...، فقد وطّأ للهجوم، ثم لم يذكر منه شيئا، بل ذكر النتيجة بعقب التوطئة مباشرة، ولولا ما دار بين الجيران وغيرهم في ذلك المجلس بالغميصاء ما درينا من التفاصيل شيئا البتة.

(٢) استفدنا هذا المعنى من قوله (تراها) أي السيوف، كأنه في كل مرة يعود بسيف هذه حاله، ومن عادة الأبطال كسر السيوف وفلّها، لذلك لا يتكلم الشنفرى عن سيف واحد بعد معركة واحدة بل عن سيوف تأبط شرًّا التي كسرها وفلها بعد غزوات كثيرة.

(٣) المشي السريع يهتز له المنكبين.

بهذا العنف المفرط والقسوة الشديدة والدموية المخيفة استحق تأبّط شرًّا أن يخلصه الشنفرى الود وأن يمدحه هذا المدح الصادق غير مجامل له ولا محابٍ، وبهذه الصفات نفسها استحق الشنفرى أن يخلصه صاحبه الود أيضًا وأن يرثيه رثاء مؤسيًا مؤثِّرًا(١).

جناية مفزعة

٢٩- قَتَلْنا قَتيلًا مُـهْـدِيًـا بِمُلَبِّدٍ
جِمارَ مِنًى وَسْطَ الْحَجيجِ الْمُصَوِّتِ(٢)

---

(١) قد يبدو هذا كله غريبًا لأبناء العصور المتأخرة بعد أن شاعت فيهم تصوراتٌ سطحية عن الحياة والناس، وقد يعجبون أيضًا أن يألف إنسان هذه صفاته إنسانا أو حيوانًا حتى يفجعه فراقه فيتحسّر عليه، ولكن لا بأس في ذلك عند الشنفرى وأصحابه، وسنراه يتعمد ختم القصيدة بتقديم علّة ذلك كله.

(٢) **مهديًا**: مُحرمًا يسوق الهدي ليقدمه قُربانًا، **بملبّد**: بشعر التصق بعضه ببعض، **جمار منى**: ظرف مكان أي عند جمار منى. وظنّي أن الشنفرى لم يذكر تلبيد شعر ضحيته عبثًا بل لغرض، وقد أشار الشرّاح إلى أنه كان من عادة عرب الجاهلية وضع شيء من صمغ في شعورهم حتى يتلبّد فلا يشعث، وهذا أليق بضحية الشنفرى من أن يُظن به أنه يعدو على صعلوك من أصحابه لا يهتم بنظافة شعره إلى أن تلبّد كما تلبّد شعر الشنفرى نفسه من بعدُ (لبائد عن أعطافه ما تُرجّل)، ولم يصل شَعر الشنفرى إلى هذه المرحلة إلا بعد طول وحشة وانفراد في صحراء قفر خالية، أما رحلة الحج القديمة فلا يمكن أن تكون طويلة إلى درجة أن يتلبّد شعر الحاج، فما وجه ذكر الشنفرى تلبيده شعره إن كان ذلك من لوازم الحج؟ وما وجه ذكر الشنفرى الهدي؟ وما وجه ذكر توسط القتيل الحجيج؟ إنما أراد الشنفرى بذلك أن يدل على مكانة القتيل في قومه فهو رئيس في قومه يتقدم حتى يخترق جموع الحجيج فيتوسطها بهديه ونَعَمه، غني يسوق الهدي إلى تلك الأماكن المباركة ليطعم الفقراء =

يعود الشنفرى بهذه الصورة الشعرية الصادمة لسياق قصته التي كان بصددها قبل أن يعطفه مزاحه عنها؛ فيصوّر لنا النتيجة النهائية لغَزاته دون تصوير خطواته وأصحابِه إليها، وهو الأسلوب نفسه الذي عمد إليه في البيت السابق لخَتْم قصة صاحبه الدموية الشائقة[1].

بدأ الشنفرى قصيدته بذكر هجر زوجه إياه، ثم بدأ خبر الغَزاة بذكر الشِّمات، ثم صوّر لنا عقبات رحلته البعيدة المضنية، وافتخر بصاحبه البطل العنيف الدموي، فما الذي يمنع المتلقي

= والحجاج المنهكين، مترف يهتم بمظهره ويعتني بشعره فيلبّده حتى لا تزيد فيه الحشرات أو تتجمع فيه الأوساخ. ثم إن الشراح قد توهّموا أن المصوّت هنا تعني المُلبّي، فمَن ذلك الذي يُلبّي وجاره الذي ربما كان رأس قومه يُنحر في ذلك المكان المبارك على مرأى منه ومسمع! بل كانوا ما بين جازع وناهٍ، فإن قيل إنما قصد إلى تغليب أصوات الحجاج الذين لا يرون وهم أغلب الحجاج قلنا: ربما، لكن عدم رؤيتهم وانصرافهم عما يحدث وهو أمر عظيم يعني بعدهم، فما يدفع الشنفرى إلى أن ينصرف عن تصوير ما يحيط به من أثر فعله إلى تصوير الأصوات المعتادة في ذَيْنِكَ المكان والزمان حتى كأنها لاعتيادها غير موجودة؟ ثم هذا رجل يسوق الهدي لذبحه والتصدق به، وحقيق بمَن كانت هذه صفته أن يكون مُحاطًا بالعُفاة الجائعين، وهؤلاء أولى بالجزع على المحسن إليهم.

(١) وبالأسلوب نفسه سيصور لنا قتل عدوه في لامية العرب، وللمتلقي التخيّل، راجع التعليق على شرح البيت الثامن والعشرين من هذه القصيدة، ثم انتبهْ إلى أن غرضه من هذه الغزاة قتل رجل واحد كغرضه من غارته الموصوفة في لامية العرب؛ فلم يكن كما ذكرنا يجد لذة في قتل الناس والاعتداء عليهم، بل كان ينتقم ممن يستحق منهم، ودع عنك تهديداته الغاضبة في بعض شعره؛ فإنه لم يكن يُقدم إلا على قتل أشخاص بأعيانهم، وليس يمنع هذا أن يكون قد قدّم العون لأصحابه في بعض غزواتهم كما قدّموا له العون في غزوته هذه.

الآن من الاكتفاء بهذا القدر من الحركة والتماس الأعذار للشنفرى وأصحابه إن ظن أنهم خاب سعيهم؟ الحق أن لا شيء يمنع من ذلك؛ لقد قدّم الرجل عذره بين يدي ذنبه، أتراه أحسّ بذلك في وجوه سامعيه الأوائل فلجأ إلى هذا التعبير الصادم؟ ربما.

قتلنا قتيلًا، إن شغلتك الصدمة عن استيعاب الأولى فقد أعقبتها الثانية المشتقة من الجذر اللغوي نفسه لتدفع أختها بقوة إلى اختراق سمعك ووعيك، نعم لقد قتلوه قتلًا، ونعم لقد اخترقوا الصفوف دون أن يشعر بهم حتى توسطوا الحجيج الذين يتوسطهم، وقد عاجلوه بالضربة أو الضربات القاتلة فلم يجد وقتًا ليأخذ حذره أو يرفع سيفه أو يهرب، بل قتلوه على حاله مهديًا في وضح النهار وفي أطهر الأماكن جمار منى وعلى مرأى ومسمع من الجميع، فما ظنّك الآن بتلك الأعذار الواهية!

إن زوجه لم ترحل لأنه فشل بل لأنه نجح فَجَرّ على نفسه ثارات جديدة[1]، وقد أرهقها نصحه وأيأسها طبعه، ولم يذكر الشِّمات إلا

(١) لا نظن أن موقفَ أميمة من معتقدات العرب حينئذٍ يختلف كثيرًا عن موقف زوجها منها، بل لعلها تأثرت به في استهانته بها، وليس يُظن بمثله غير الاستهانة بعبادة الأصنام؛ فهو أبعد ما يكون عن تصديق الأوهام كما مر بنا، وهو كذلك ذو عزيمة ماضية ونفس مرة وإرادة صلبة يُكلّف نفسه فوق ما تطيق نفوس البشر فتطيقه، ثم هو ثائر حانق على الوضع العام بتفاصيله كلها، فكيف ينحني لصنم أو يقبل به ربًّا؟ ومما يدفع إلى هذا الظن دفعًا =

لفقده زوجه وليس لفوت عدوه، وهذه العقبات المضنية والمخيفة لا تثني مثله عن غرضه.

الحقيقة أن لا شيء يثني الشنفرى عن غرضه أيًّا كان، وقد رأينا بعض ما مرّ به، وصرّح بذكره، وفي هذا البيت نرى بعض ما لمّح إليه دون تصريح؛ فقد عجل وأصحابه إلى عدوه وقتَ وصولهم إلى مكانه، لم ينتظروا ظلامًا يُجنّهم عن أعين الناس، ولا فرصة تسنح لهم؛ فالوقت ليس في صالحه على الإطلاق؛ الزاد قليل جدًّا والمكان مكتظّ بالناس، وقد اختلفت سيماه وأصحابه عن سيما الحجاج، ولا شك أن من الحجاج مَن يعرفه ومن يعرف أصحابه، وليس مثلهم ممن يتوب ويندم ويسعى ليتطهر من ذنوبه؛ فلا شك إذن في أنهم لم يأتوا إلا لشرّ، لذلك كله، وربما لغيره أيضًا قرر أن يهجموا مباشرة وقتَ وصولهم مع ما واجهوا من مشقات كثيرة، وكان ذلك في وضح النهار؛ إذ لا يُعقل أن يزدحم مكان رمي الجمار حينئذ في

= استهانته بالاعتداء على المحرمين، وما سنراه في البيت التالي من سخرية واضحة بمعتقدات العرب حينها وبعاداتهم وتقاليدهم، لذلك لم تكن غضبة أميمة لما تؤمن به، ولكنّ جريرته هذا المرة ليست كأي جريرة، ولا يمكن أن تمر بسهولة، وقد استفز بفعلته هذه العرب جميعًا، وبالغ في إذلال أعدائه، وخسر أي تعاطف كان من الممكن أن تجنيه قضيته، ثم كأنها لمّا رأته قد خرج من غمرة هذه الغَزاة سالمًا توقّعت أنه لن يلبث حتى يأتي بما هو أشد منها، ولقد صدق حدسها، ثم لا تنس الشبه بين هذه القصيدة كلها وقصة سبقه سرب القطا في اللامية؛ فقد بدأ فيها بالنتيجة النهائية، ثم ذكر التفاصيل.

الليل، وكان الهجوم على مرأى ومسمع من الجميع بلا استثناء، هذا عمل انتحاري عنيف.

فإن تكن صورة صاحبه الدموية العنيفة القاسية قد راعتك فإنها لتتضاءل حتى تختفي أمام هذه الصورة التي جمعت صفات الأولى مبالَغًا فيها، ثم لم تكتف بإسخاط فريق من العرب، بل أسخطت العرب جميعا لمّا استهان بمشاعر[1] الحج المقدسة، وأخطر من هذا كله اعتداؤه على ضيوف الله المستجيرين بحرمه، وَيْلَهُ ماذا ظنّ بنفسه! وَيْلَهُ لِمَ لَمْ ينزل على نصح أصحابه وينثني عن غيه!

سخرية لاذعة

٣٠- فَـإِنْ تُقْبِلوا نُقْبِلْ بِمَنْ نِيلَ مِنهُمُ
وَإِنْ تُـدْبِـروا فَـأُمُّ مَـنْ نِيلَ فُـتَّـتِ[2]

ساء العربَ جميعًا ما أقدم عليه الشنفرى وأصحابُه، لأنه يهدم بذلك الفعل الشنيع أصلًا من الأصول الثابتة في عبادتهم، إنه

(١) المشاعر: المَعالِمُ الَّتي نَدَبَ اللهُ إِليها وأَمر بالْقِيام عَلَيْها.

(٢) **تقبلوا وتدبروا** نقيضان، **فُتت**: دُقّت أو كُسرت. أساء مَن تعرض لهذا البيت فهمه إساءة كبيرة؛ فلم يراع التقديم والتأخير ولا راعى اختلاف الضمائر المستخدمة عما فهمه، فكان من أفضل ما قيل في شرحه: إن تحاربوا نحاربكم ونحن حاملون دماء مَن قتلنا منكم، وإن نكصتم فقد فتتنا رؤوس من أصبنا منكم بلا قود. وهو بعيد كما ترى، وقد تُفهم (أم) على أنها أم رؤوسهم كما قيل، ولكنني لا أرى ذلك.

حرمٌ آمن، وينبغي أن يبقى آمنًا، وينبغي على كل مَن كان له ثأر أن ينسى ثأره فيه، ثم يفعل ما شاء بمن شاء إذا خرج منه، أما ترويع المحرمين والاعتداء عليهم فإنه ما لا يمكن قَبوله، لأنهم إن قبلوا به فقد قبلوا بهدم هذا الجزء المهم من عبادتهم، وعليه يقوم أصل من أصول دينهم وأصل من أصول تجارتهم وأصل من أصول المعاملة السياسية بينهم، الأمر خطير جدًّا.

لكنّ الشنفرى لا يريد أن يعيَ من هذا كله إلا أنهم لا يملكون أن يصنعوا به شيئًا أكثر من القتل، وهو ما أدركه ساعة اختار أن يكمل طريقه وأن يخترق الحرم (لأنكي قومًا أو أصادف حمّتي)، ولذلك يستهين بهذه التهويلات، ويتحدّى الجميع فإن تُقبلوا أيها الغاضبون طلبًا لدماء من نيل من سلامان في الحرم أُقبلْ أنا وأصحابي أيضًا، وإني لا أحب لكم أن تغضّوا الطرف وتتجاهلوا الأمر لأنكم إن فعلتم قطعتم أرحامكم.

هذا تحدٍ عجيب جدًّا يشي ببعض ما في نفس الشنفرى من ثورة شديدة على النظام السائد في عصره كله ومعتقدات الناس في زمنه، ويشي أيضًا بفكرته التي ستتحول إلى واقع بعد قليل عندما يخرج على أنظمة المجتمعات العربية على اختلافها ويعتزلهم جميعا مفضّلا عليهم الصحراء ووحشَها، ويشي كذلك بحسرة مريرة تمزّق قلبه

وتزيد ثورته اشتعالا؛ إنكم إن غضضتم طرفكم قطعتم أرحامكم لكن إن طلبتم قتلنا لم تقطعوا بذلك أرحامكم، إنه شعور مؤلم له ولكل كريم يرى نفسه حقيقًا بالتقدير من قومه ومن أمته، لكنه لا يرى منهم إلا صرمه وقطيعته(١).

جزاء الغدر

٣١- جَزَيْنا سَلامانَ بْنَ مُفْرِجَ قَرْضَها
بِما قَدَّمَتْ أَيْديهِمُ وَأَزَلَّتِ(٢)

يستمر الشعور بالحسرة، وهل زدنا أيها الغيورون على المعتقدات والعادات والتقاليد على أن رددنا لهم دَيْنهم الذي استحقوه(٣)! وهو بهذا البيت يكسر حدة تحديه السابق، ولكن بغير



(١) هذا هو الشنفرى وهذه طبيعته، ومشاعره في هذه القصيدة هي مشاعره في لامية العرب، راجع شرحنا بدايتها تجد التحدي العجيب نفسه دون أن يعبأ بكثرتهم أو انفراده بينهم، وتجد الحسرة نفسها والثورة نفسها، وربما كانت الأم المذكورة هنا هي نفسها الأم المذكورة هناك في أول بيت، أتراني أخطأتُ حينما وضعتُ احتمالا لوجود أخوّة حقيقية بينه وبين كبراء فَهْم! لا أعلم، وما السبيل إلى العلم!

(٢) **سلامان بن مفرج**: قبيلة ضحاياه، **قرضها**: دَيْنها، **أزلّت**: أخطأت.

(٣) إذن كان لأبي الشنفرى حرمة، لكن سلامان لم تحفظ تلك الحرمة، وظني أنها كانت حرمة الجوار، تأمل قوله: أضعتم أبي إذ مال شق وساده على جنف قد ضاع من لم يوسّد/ فإن تطعنوا الشيخ الذي لم تفوّقوا منيته وغبت إذ لم أشهد/ فطعنة خلس منكم قد تركتها تمج على أقطارها سم أسود. ليس عجبًا إذن ألّا يثق في جوار أحد من البشر، وأن يفضّل وحش الصحراء على أبناء جنسه.

قصد، وليس الدَّين المقصود هنا أنه قد قتل كُفْء أبيه، بل يقصد أنه رد لهم غدرهم بأبيه، أي: حُرمة بحُرمة.

وهو بهذا البيت يزيد الصورة وضوحًا؛ فلقد رسم البيتُ قبلَ السابقِ لهذا القتيل صورةً حسنةً تحمل مَن يُنعم النظرَ على أن يراه شهيدًا مظلومًا، ويرى مغتاله ظالمًا أثيمًا؛ لقد كان سيّدًا ديّنًا غنيًّا كريمًا محسنًا مترَفًا يهتم بمظهره وصحته، هكذا كانت الصورة قبل الدفع بهذا البيت لتعتدل كِفَّتا الميزان، ولكيلا يغترّ المتلقي بالمظهر الجميل الخادع؛ فإن الحقيقة سيئة.

عار وصغار

٣٢- وَهُنِّئَ بي قَـوْمٌ وَمـا إنْ هَنَأْتُهُمْ
وَأَصْبَحْتُ في قَـوْمٍ وَلَيْسوا بِمُنْيَتي[١]

وتستمر الحسرة برغم انحسارها؛ فلقد ساءه أن إدراكه للثأر على هذا النحو قد رفع اللوم عن قبيلته التي ينتمي إليها بعد أن أحجموا عن إدراك ثأر ابنهم وآثروا السلامة، فجنّبهم الذم بذلك دون إرادة منه أو استحقاق منهم وتحول خزيهم إلى راحة ضمير، وقد أبى إلا تنكيرهم (قوم) احتقارًا لشأنهم، وهل يكفي لتهنئتهم بإدراك ثأر ابنهم الذي أضاعوه أن مدركه منهم؟ فإن يكن نَسَبُهُ

---

(١) اضطرب فهم الشرّاح لهذا البيت أيضًا اضطرابًا شديدًا، والرأي ما أثبتناه.

فيهم فإن إقامته في غيرهم، وهذا سبب جديد لاستمرار حسرته، وأخواله أيضًا (قوم) على التنكير لأن عيشه فيهم لا يعني أنهم مُنيته والعاملون بمبادئه، بل هم للأسف كغيرهم، لذلك لن يلبث حتى يتركهم، ويرحل عنهم للأبد.

اعتراف وإقرار

٣٣- شَفَيْنا بِعَبْدِ اللهِ بَعْضَ غَليلِنا
وَعَـوْفٍ لَدى الْمَعْدَى أَوانَ اسْتَهَلَّتِ[(١)]



يؤدي انحسار الحسرة إلى طغيان التحدي؛ فإن كانت قبيلته قد توانَتْ عن إدراك ثأر أبيه فقد توانت سلامان أيضًا عن إدراك ثأر عبد الله وعوف اللذين قُتلا لدى المعدى وقت المطر، لكن الشنفرى لم يشفِ بماء المطر غُلّته ولا شفاها دمُ الرجلين كذلك؛ فإنه لم يُذهب إلا بعض الغُلّة.

هذا تحدٍّ مستفز في وقت غير مناسب؛ لقد خسرتْ قضيته كثيرًا أمام الرأي العام العربي حين استهان بمعتقدات العرب جميعًا وعاداتهم وتقاليدهم، ثم يأبى أن يختم القصيدة قبل أن يسطر

---

(١) **الغليل**: حدة العطش، **المعدى**: مكان العَدْو أو ساحة الاقتتال، وربما كان اسمًا لمكانٍ، **استهلّت السماء**: إذا بدأت تمطر أو اشتد صوت وقع المطر، وقد فسرها الشراح بـ(ارتفعت الأصوات في الحرب)، ولا أظنه كذلك.

اعترافًا رسميًّا فيها بأنه هو المسؤول مسؤولية كاملة عن قتل عبد الله وعوف، وذكر ما يؤكد ذلك، فحدد مسرح اعتدائه ووقتَه تحديدًا دقيقًا!

استهانة واحتقار

٣٤- إِذا ما أَتَتْني مِيتَتي لَمْ أُبالِها
وَلَمْ تُذْرِ خالاتي الدُّموعَ وَعَمَّتي[(١)]



(١) **تذري**: تصبّ. قارن بين موقف نسائه هنا إن مات وبين تشبيهه ضجيج الذئاب غير المفيد في البيت الثالث والثلاثين من لامية العرب بنوح المثاكيل لاشتراكهما في الإزعاج تعلمْ أن باعثهما واحد وأنهما لم يخرجا إلا من نفس واحدة، وقد ظهر لنا مما عالجنا من شعر الشنفرى في هذه القصيدة وفي لامية العرب مقدرتاه اللغوية والشعرية العظيمتان، ولا شكّ في أنه لم يذكر خالاته وعمته إلا لغرض، وأغلب الظن أن غرضه هو نقل الواقع بدقة، ثم كونها عمة واحدة يثير أسئلة كثيرة من مثل: هل هذه العمة هي الجارة التي كانت أميمة تتعهدها بالهدايا فإن لم تجد آثرتها بغبوقها؟ وإن كانت هي فما سبب إقامتها في فَهم؟ أتُراها كانت زوج أحدهم ثم مات عنها أو كان حيًّا لكنه فقير معدم؟ أو كانت كغيرها سوى أنها كانت عجوزًا غضوبًا فكانت أميمة في حاجة لاسترضائها دائما؟ أم كانت تحت رعاية أخيها فلما قتلته سلامان انتقلت إلى حيث انتقلت أسرته، وأصبحت في رعاية ابن أخيها؟ ولِمَ لم يكن يُهدي إليها الشنفرى بنفسه إن كانت عمته؟ أتعيش مع ابنة لها فهو يخشى سوء القالة ويخشى أن تغار أميمة؟ ثم هل ذكرها الشنفرى في شعر آخر؟ وهل عناها بضمير المؤنث أو بذكر اسمها في أي بيت من شعره؟ ثم إن كانت هي التي يتعهدها الشنفرى فما سبب عدم اكتراثها لقتله إن قتل؟ وإن لم تكن هي التي يتعهدها وكانت تقيم في ديار قومها بعيدة عنه فذلك أدعى لعطفها على من بقي من نسل أبيها، وبخاصة بعد أن أدرك ثأر أخيها، فما سر عدم مبالاتها؟ أما أنا فلا أدري إجابة أي سؤال من هذه الأسئلة على وجه اليقين =

كأن أحدًا قد اعترض على أسلوبه، أو كأنه هو قد تذكّر أنه أدرك ثأر أبيه بعد سنوات من قتله، وذكر أن مثله لا يمكن أن يموت ميتة العامة، وأن رجال سلامان بعد هذا التحدي المستفز لا يمكن أن يتوانَوْا عن إدراك ثأر ابنهم؛ إن هذه الجناية الموصوفة قد طبّق خبرها الآفاق، ولو أنهم أحجموا عن إدراك الثأر لكان عارَ الأبد، ثم جاءت هذه القصيدة لتؤكّد على إذلالهم فاعترض أحد السامعين أو ذَكَرَ الشنفرى ما ذَكَرَ فكان هذا البيت.

إنه لا يبالي بالموت ولا يخشاه، ثم يُعترض عليه أو يتذكّر أن المبالاة بالموت ربما لا تكون حبًّا في الحياة، بل حبًّا في الضعفاء الذين يعتمدون علينا في هذه الحياة بعد أن كبروا أو إلى أن يكبروا، أو حرصًا على ألا يحزنوا، فيكشف لنا الشنفرى أن أولئك الضعفاء الذين يعتمدون عليه، أو يتوقع أن يحزنوا عليه عند موته لن يفعلوا، إنه ليس أجزع على المرء من نسائه، فهؤلاء نساؤه لن تدمع لهن عين، ربما لتوقّعهن ذلك في أي لحظة أو لظنهن استحقاقه القتل بعد هذه الجرائر كلها[1].

= أو تغليب الظن، لكن ربّ مبلَّغ أوعى من سامع، وعلى كل حال فإن كانت تلك المرأة عمّته فإن إيثاره إياها بطعامه برغم فاقته وجحودِها دليلٌ على قيامه بمسؤولياته وعلى رحمته أيضًا بالرغم من قسوته في المواقف التي يحتاج فيها إلى القسوة، وإن لم تكن عمّته فإن إيثاره الضعيف الغريب على نفسه مع فقره دليل رحمة راسخة في نفسه.

(١) ولا يمكن أن يُرجع أحدٌ هذا إلى رباطة جأش تلك العائلة أو إلى قسوة متوارثة؛ فإن =

لصديقه الساكن

٣٥- أَلا لا تَعُدْني إِنْ تَشَكَّيْتُ خُلَّتي
شَفاني بِأَعْلى ذي الْبُرَيْقَيْنِ عَدْوَتي(١)

ثمّ كأنه كان ناسيًا فذكر، وقد قيل إن كنتَ كذوبًا فكن ذكورًا؛ لقد ادّعى الشنفرى قبيل خروجه وأصحابه المرض حتى لا يَعجبَ أحدٌ إن فقدَه حين يُصبح أو التمسه فلم يجده حيث اعتاد أن يجده فادّعى المرض قبل عودته إلى بيته في الليلة التي خرجوا فيها، وأنه

= أخوال الشنفرى وأعمامه من قبيلتين مختلفتين، ثم لقد بكت أمُّه أباه: تُوَلْوِلُ أَنْ غالَها دَهْرُها بِرَيْبِ المَكارِهِ بِالْأَرْوَعِ. ولولا ذهاب أميمة ما قال هذا البيت، لأنها لو بقيت لضمن أن يجد من يبكي عليه، ولعله يحمّل قريبات أبيه جزءًا من مسؤولية تضييع قبيلته لثأره، ربما يرى أنهن كنّ قادرات على دفع رجالهن ببكاء القتيل ورثائه والإزراء عليهم إلى المطالبة بثأره، وربما يرى أن هذا التاريخ القريب يعاد الآن، ويوشك يقع له مثلما وقع لأبيه.

(١) **تعدني** من العيادة وهي زيارة المريض، **تشكيت**: اشتكيت المرض، **الخُلّة**: الصَّداقَةُ وَالمَحَبَّةُ الَّتي تخلّلت الْقَلْبَ فَصارَتْ في خِلاله أَي في باطِنِه، **ذو البريقين**: مَوْضع، **عدوتي**: اعتدائي. إن جمعتَ هذا البيت إلى ما سبقه عرفتَ أن بقاء الشنفرى في فَهْم بعد أميمة لم يطل؛ لم يشفه قتل عبد الله وعوف، لكن شفته عدوته هذه، وعدوته أثارت العرب جميعًا، ولم تترك لسلامان بدًّا من الرد، ثم رحلت أميمة، فوقف يقول: هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل. والبريقان اسم صحراء ذُكرت في الشعر العربي، لكن لم يُحدَّد مكانها بدقة وأغلب الظن -إن كانت هي نفسها المذكورة هنا- أنها كانت في طريقه لغزاته أو على مقربة منها، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٤٠٧، وقد فسّر أكثر الشراح العدوة بأنها الركض، ومنهم من قرأها العُدوة ظنًّا منه أنه يقصد المكان المرتفع، ولم يقصد هذا أو ذاك.

في حاجة ليرتاح، لكنه لم يعد للراحة بل عاد لأخذ سلاحه والتسلل به إلى أصحابه للخروج إلى الغزوة[١]، وقد آثر الكتمان فربما يكون الخبر الذي بلغه عن أعدائه قد بلغ غيره من المحيطين به فخشي إن فقدوه في ذلك الوقت أن يعلموا أنه ذاهب للثأر، ومَن يدري بما يمكن أن ينتهي إليه علمهم أو عملهم[٢]! لذلك كان من الحزم وحسن التدبير شغلهم عن هذا الظن بيقين آخر فادّعى المرض، وقد تأخّر ادعاؤه وخروجه مبالغة في الحزم وحسن التدبير[٣]؛ فهو إن كان سليمًا لا يمكن أن يلحق بأعدائه بسبب ضيق الوقت وبُعد الشُّقة فما الحال وقد أصابه مرض فأقعده في بيته!

لكنه ذكر الآن فجاهر بخطته، لا تَعْذُني أيها الصديق؛ فإنني لا أبحث عن المواساة بعيادتك إنما أبحث عن الشفاء، وشفائي كان في اعتدائي عليهم وإراقة دمائهم حيث كانوا، وقد برئتُ.

---

(١) لذلك قال في البيت الثامن عشر من هذه القصيدة رواحي وغدوتي، ولو شاء لقدم الغدو وما منعه شيء.

(٢) راجع صفات مجتمعه في لامية العرب، ويكفيك أن تذكر قوله مادحا وحش الصحراء: لا مستودع السر ذائع لديهم.

(٣) وفي البيت الثامن عشر من هذه القصيدة دليل على ذلك؛ إذ إن تأخُّره قد اضطره وأصحابه إلى وصل الليل بالنهار دون راحة، ومع ذلك لم يلحقوا بعدوهم قبل دخوله الحرم، ولو أنهم خرجوا قبل وقت كاف للحقوا به لِما عُرف عنه وأصحابه من الحزم وسرعة العدو، راجع شرحنا البيت السابع والخمسين من لامية العرب.

وجهره بخطته دليل على أنه لا يلجأ للخطة نفسها كل مرة، فإما أن يختلق أعذارًا جديدة أو يعالج أمره بما يراه مناسبًا في حينه[1].

وهذا يفسر لنا سبب سَوقه خبر هجر أميمة له على النحو الذي رأينا في البيت الأول؛ إنها لم تأتِ بجديد بل تعلمتْ فحسن تعلّمها، وكان فيما فعلته شهادة لها ولأستاذها معا؛ لقد كتمت أمرها عن زوجها وحِبِّها ودبّرت لكل شيء أحسن تدبير، وكذلك فعل هو أيضًا لَمّا أراد الخروج أخفى خبره عن أحب أصدقائه إليه وأقربهم منه وادّعى المرض الشديد.

٣٦- وَإِنّـي لَحُلْوٌ إِنْ أُريـدَتْ حَلاوَتي
وَمُـرٌّ إِذا نَفْسُ الْـعَـزوفِ اسْـتَـمَـرَّتِ[2]

٣٧- أَبِـيٌّ لِما آبَـى سَـريـعٌ مَباءَتي
إِلـى كُـلِّ نَفْسٍ تَنْتَحي في مَسَرَّتي[3]

يردنا البيت السابق إلى عدّة نقاط أهمها هذا التناقض الذي

(١) راجع شرحنا لبداية لامية العرب تجده هناك قد اطرح كل عذر وأبى إلا المصارحة الشديدة الفظة والتحدي المستفز والاستهانة المُهينة.

(٢) **العزوف**: الراغب عن الشيء، **استمرت**: استفعلت المرارة.

(٣) **أبي**: نافر، **لما آبى**: مما أكره، **مباءتي**: رجوعي، **تنتحي**: تقصد.

تظهر به شخصية الشنفرى لذوي النظرة السطحية؛ فهو من ناحية ثائر دموي عنيف مستبد ومن ناحية أخرى ألوف ودود، من الجهة الأولى تعجبه امرأة وتوافق طباعها طباعه فيتزوجها ويكتفي بها عن كل النساء، ويحسن إليها ما دامت مطيعة له محافظة على قواعده ويألفها حتى يحزنَه رحيلها وتظهرَ حسرته، ويصادق من الناس الصعلوك الثائر والهادئ الساكن ويحبهم ويودهم ودًّا خالصًا، أما الجهة الثانية فقد ظهرت بقوة في الأبيات السابقة.

وذوو النظرة السطحية في كل مكان وزمان، ويَكثرون في المجتمعات الضعيفة المدجّنة كمجتمع الشنفرى الذي كثر فيه الخَبَثُ حتى علاه وصارت أموره إلى تافهين لا وزن لهم، وهم مع ذلك مستبدون بلا رحمة[١]، فأراد بهذين البيتين مواجهة ما يُرمى به وإيضاح الرؤية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فإن له ككل مخلوق طبيعي جانبين: أحدهما لين لمن لان له في حال لينه فقط، هو لا يقدّم إلا على قدر ما يجد؛ فهو ليس ليّنا مع من لان له، بل هو ليّن في الوقت الذي يُعامل فيه بلين فقط.

فإن تحوّل لين الصاحب إلى غلظة زهد فيه وانقبض عنه كما

(١) راجع صفات مجتمعه في شرحنا على لامية العرب.

فعل مع أميمة، ولا يتحول زهده إلى قسوة وعنف إلا إن بالغ ذلك العزوف في غيّه، فإن له معه ساعتها شأنًا آخر[(١)]؛ فطبعُه الذي لا سبيل لتغييره أنه نافر مما يكره، مواجه له بحزم، لكنه في الوقت نفسه سريع الفيئة إن فاء خصمه؛ فلينه بقدرٍ وغلظته بقدرٍ، وبينهما مساحة من الرحمة، وهي أيضًا بقدر.

هذه شخصية متكاملة؛ تعرف نفسها وتعرف الناس، وتعرف موضع الرحمة وموضع البأس، وموضع التغافل[(٢)]، وظني أنه يُفسح لخليله المذكور في البيت السابق مجالا للعودة عما ادّعاه من غضب أو قطيعة بسبب عدم ثقة الشنفرى به وكذبه عليه حين ادعى المرض.

لأليفه الراحل

٣٨- وَلَـوْ لَمْ أَرِمْ فِي أَهْـلِ بَيْتِي قاعِدًا

أَتَتْني إِذَنْ بَيْنَ الْعَمودَيْنِ حُمَّتي[(٣)]

---

(١) لا يمكن أن يكون قد قصد إلى تهديد أميمة بهذا؛ فهو يعرف أنها لن تحاول إيذاءه بأي كلمة بعد رحيلها ولن ترميه بسوء، لذلك كان تعهده لها في البيت الخامس خاليًا من أي شرط، ولو توقّع منها إيذاء لفصّل لها القول.

(٢) وقد وفَّقَنا اللهُ للانتباه لهذه المراحل عند شرحنا اللامية قبل أن ننشغل بالتائية، فانتبهنا إلى تغافله عن المجترئ عند شرح البيت الثالث، ثم لينه للمشفق عند شرح البيت الرابع، ثم إهانته للمجترئ لما أهانه بالأبيات الستة ١٥-٢٠.

(٣) أَرِم: أبرح، **بين العمودين**: كناية عن بيته، **حمتي**: موتي. جعل شارحا المفضليات الشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ عبد السلام هارون هذا البيت بعقب البيت الرابع والثلاثين هنا، لما ظناه من مناسبته إياه، وليس الأمر كذلك.

لا يشك الشنفرى في أن قصيدته هذه ستجد طريقها إلى سمع أميمة صاحبته القديمة وإلفه، وليس يُعقل أن يدفعه حرصه على خليله إلى أن يوضح له موقفه بالبيتين السابقين، ثم يهمل أميمة تمامًا، لذلك قرر أن يختم هذه القصيدة العظيمة بهذا البيت الصادق الهادئ الرقيق، إنه لا مفر من الموت، وهبي أنه بقي في أهل بيته وهو ما لا يمكن أن يقبل به الشنفرى، وهو أيضًا ما لم تطلبه أميمة؛ إنها لم تطلب أكثر من أن يتوقف عن الغارة على الناس والولوج في دمائهم، ولكن لو أنه أخذ بالأحوط إرضاءً لها وبقي معها لا يفارقها هل ستبقى المنية بمعزل عنه! إنّ طلبَ المنايا الناسَ أشدُّ من طلبه أعداءه.

كلام مكرور، لكنه الحقيقة، والحقيقة لا تتغير، لكن أميمةَ لا تطلب حقائق ومعلومات، ثم ما أكثر ما سمعت منه هذا الكلام وهي في بيته فلم تقنع به وإن لم تملك رده، فهل يُتوقع أن تقنع به الآن وترضى بعد هجره وصرمه!

النتيجة حتمية ومعروفة، هي لن تقتنع ليس لأن كلامه غير مقنع، ولكن لأنها لا تريد إلا شيئا واحدًا وتحسبه هينًا، تريده على أية حال بحق أو بباطل، وهو ما لا يُطيقه الشنفرى[1].

(١) ربما ظنّ بعض المسالمين الطيبين أن حب أميمة لزوجها هو ما دفعها لهجره؛ فإن أعداءه لن يتركوه، وبقاؤها معه قد يكون سببا في الإيقاع به؛ فلن يعجزهم أن يتربصوا به قريبًا من بيته أو في طريق عودته إليه، وربما استعانوا بنفور تأبّط شرًّا من الزواج على إثبات ظنهم، وليس الأمر كذلك؛ فهذا مما لا يغيب عن تفكير الشنفرى، لكنه كان مستهينًا بالموت =

فإن كان باطل العشّاق قد يتحوّل إلى حقٍّ مِن شَدّة الحبّ لا مِن شِدّة الحجّة، فإن الشنفرى ليس ممن يدخل العشق قلوبهم، ولا هو ممن يقيمون على الذام إلا ريثما يتحولون، رضي مَن رضي، وسخط مَن سخط.



= استهانة حقيقية صادقة، وقد عرفها كل من عرفه، لم يَخْفَ على الشنفرى أن الزواج قد يكون سبب هلاكه، لكنه مع ذلك تزوج، وحافظ على امرأته حتى بادرته بالرحيل، وقد تعمدت الرحيل في وجوده مارّةً به؛ فهذا رحيل غاضبة معاندة لا مُحبَّة حريصة، ثم إن خَتْمَ الشنفرى قصيدته بهذا البيت دليل على أنه لم يضع أي احتمال آخر لهجرها إياه، إنه لا يعرف لهجرها إلا سببا واحدا فقط، وربما عرف أيضًا أو ظنّ أنها تأمل أن يفتقدها فيحاول ردّها، وربما دفعه هذا الظن إلى إنشاء هذا البيت؛ فهو لن يتغير، وهذا ما لا يوافقها، وبهذا البيت يقطع رجاءها بالمعروف بلا إيذاء أو إساءة. فإن قال قائل: فلمَ لا نقول إن الشنفرى كان مستهينًا بالحياة في ظل ذلك الفساد، ولم يكن مستهينًا بالموت؟ قلنا: إن مَن استهان بهذه الحياة هان عليه الموت، والعكس صحيح، مَن استهان بالموت هانت عليه هذه الحياة، فمِن أيها بدأتَ وصلتَ إلى الأخرى، وليس مثل هذا قول سيدنا أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: «احرص على الموت توهب لك الحياة» (وفيات الأعيان، ٣/ ٦٧)؛ فإنه إنما أراد بـ(الحياة) الحياة الأبدية في الجنة، والمُراد هنا بـ(هذه الحياة) الحياة الدنيا فقط.

وبعد

فإن القارئ لهذا الشرح لن يجد فرقًا كبيرًا بين نهجي فيه ونهجي في شرح لامية العرب، اللهم إلا ما كان من انصرافي الكامل هناك عن كل ما عدا القصيدة نفسها من حكايات وأشعار واكتفائي التام بها، فإن هذا مما يليق بقصيدة أوحى بها إلى الشاعر انفراده ووَحدته فجاءت كاملة مستغنية عن غيرها كما كان في عزلته مستغنيا عن غيره، واختلفت عنها قصيدتنا هذه التي أوحى بكثير من أبياتها علاقات الشنفرى الإنسانية المختلفة فاحتاجت إلى أبيات من غيرها لجلاء بعض معانيها؛ كأن كل قصيدة إنما هي صورة من صاحبها ساعة قالها.

ولن أعيد وصف منهجي فإنه موجود في خاتمة شرح اللامية، لا كسلًا مني، ولكن لأنك احتجتَ بلا شكّ إلى العودة إليها عند قراءتك هذا الشرح، ولا داعي لإعادة ما كُتب هناك فإن الإعادة سبيل للملل وسبيل لضياع الجديد وسط المُعاد وليس مثله التكرار عند الشرح والتعليق فإنه ضروري لرسم تفاصيل الصورة المراد التركيز عليها بكل تفاصيلها واستدعاء ما يمكن أن يكون قد غاب عن ذهن القارئ.

وإني لم أقصد قطّ إلى الانتقاص من أي عالم تعرض لهذه القصيدة

أو بعض أبياتها بالشرح، ولا أن أقارن نفسي به بَلْهَ أن أرفع قدري فوق قدره؛ فإنه إنما عامل نصًّا واحدًا بين نصوص كثيرة في كتاب كبير، أما أنا فلقد أقمتُ على قصيدة واحدة لا أتعداها إلى غيرها إلا نادرًا، وليس يُتوقع ممن صرف همه إلى قصيدة واحدة أن يأتي بما أتى به مَن كان عمله تحقيق كتاب كامل أو شرحه مع ما فيه من قصائد كثيرة، وعليه فلا سبيل للمقارنة، وإنني لا أقول لك: وَدَعْ كل صوت بعد صوتي. أو أقول: خذ ما تراه ودع شيئًا سمعتَ به. إنما أحببتُ أن أُهيّئ لمن يأتي من بعدي الطريق قدر ما يمكنني؛ فلا يشغل نفسه بوضع الأساس، بل يعمد مباشرة إلى أخطائي فيصوّبها وإلى أفكاري فيقوّمها ويهذّبها، ويستمع إلى ما تبعثه في نفسه من اعتراضات واستفسارات، ويسجّل ما يجد من إجابات، ثم يمضي إلى إكمال هذا البناء عن الشنفرى، وإني لأرجو أن يوفّقني الله سبحانه إلى جمع ما كتبتُه عن الشنفرى والزيادة عليه في كتاب يكون مُرشِدًا صادقًا، ودليلًا هاديًا.

ثم إني أحب لهؤلاء الأفاضل الكرام الذين ينفقون أوقاتهم وجهودهم في تتبع ما قاله الناس عن نسب قصيدة ما إلى هذا أو ذاك أن يصرفوا همومهم العظيمة إلى تذوق تلك الأشعار فإنه لن يعدم جزءًا من نفس قائلها فيها يدل بها على نفسه وحقيقته.

أما ذلك السؤال العبثي عن حاجتنا الآن لقراءة الشنفرى

وفهمه فهو لا يمكن أن يصدر عمّن قرأ هذا الشرح، وإني لأربأ بكَ أن تكون مِن أولئك الكسالى المتعالين بالباطل فتراهم جالسين لا علم لهم ولا عمل، ثم لا يستحون أن يُطلقوا أحكامًا مريضة دون فهم أو برهان.

أسأل الله أن يُقيّض لهذه القصيدة ولشعر الشنفرى كله عالمًا ناقدًا بصيرًا بكلام العرب وأشعارهم يقوم بحقِّه كاملًا، ويستخرج كنوزه كلها، وينشرها على الناس!

وأرجو أن أكون قد وُفقتُ فيما عملتُ!

نفع الله بهذا العمل، وجعله خالصًا لوجهه الكريم!

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين!

والحمد لله رب العالمين!

محمود رفعت

الخميس: 7 من جُمادى الأولى 1441

2 من يناير 2020م



مَعَ الشَّنْفَرى في قِطْعَةٍ نونِيَّةٍ لَهُ[1]

(١) نُشِرَتْ على موقع أستاذنا الحبيب أ. د. محمد جمال صقر، أحسن الله إليه! http://mogasaqr.com/ في الثاني والعشرين من يناير عام ٢٠٢٠م.

تمهيد[١]

المرأة هي المرأة مهما بلغت من الحزم والكِياسة وبعد النظر، ثم مهما كانت مُحبّة لزوجها مُطيعة له؛ فهذه أميمة مع ما كان لها من صفات تفرّدت بها بين بنات جيلها حتى رأى فيها امرأةً كاملةً الشنفرى الناقدُ البصيرُ بطباع الرجال وأدوائهم والقادر على علاج مَن أصرّ منهم -ها هي تدرك اختلاف مكانتها في نفسه عن أية مكانة أخرى[٢]، ويغرّها حسن عشرته فتحسب أنها قادرة -إن أحسنت استغلال مواهبها- على أخذه إلى حياة أخرى بعيدة عن حياته القديمة بمركزِها الذي تدور حوله وغرضها الذي استوهبَه روحَه وفكرَه وعملَه فوهبَه ما شاءَ راضيًا صابرًا مجدًّا مطمئنًّا.

أما الشنفرى فإنه كان إلى ذلك العهد شابًّا حديث عهد بالزواج والنساء، يغترّ بما يُظهرن؛ فلا يعرف طباعهن، ولا يدرك ألاعيبهن، لكنه الشنفرى وإن فاته ما فاته.

---

(١) بنينا هذا التمهيد على ما سيأتي في الشرح من بعد، وعلى ما فهمناه من قصيدة (ألا أم عمرو) فراجع شرحنا عليها.

(٢) لا يتناقض هذا مع أنها لم تكن أكثر من امرأة أعجبته كما بينّا في شرح التائية، وليس اختلاف مكانتها إلا لأنها زوجه، ثم لحسن عشرته، وقد تُغري المعاملة الحسنة وتُوهم فتُطغي.

خرج الشنفرى في غزوة، ربما كانت أولى غزواته بعد الزواج، ثمّ عاد منها ظافرًا مشتاقًا إلى زوجه المُحبّة يظن أنها تنتظره بشوق وتلقاه بفخر، ولم يدرِ ما عزمت عليه من إساءة ونفور، فأذهله ما رأى.

صدمة وإنكار

١- إِذا أَصْبَحْتُ بَيْنَ جِبالِ قَوٍّ
وَبَيْضانِ الْقُرى لَمْ تَحْذَريني[1]

تُذهل تلك المعاملة الجافة غير المتوقعة الشنفرى فيُلقي سؤاله على عجل مهملًا أداة الاستفهام؛ لقد اعتاد منها قبل خروجه في تلك الغزوة أن تهابه وتوقره، وهذا ما عناه بقوله (تحذريني)، وكان من الطبيعي أن تبقى على توقيره وتهيّبه بعد الغزوة إن لم تزد؛ إن الرجال تزيد له رهبة وتوقيرًا بعد هذه المغامرات فكيف بالنساء! وكيف بأميمة التي لم يعتد منها على غير الاحترام والتوقير!

تخيير وإنذار

٢- فَإِمّا أَنْ تَوَدّينا فَنَرْعى
أَمانَتَكُمْ وَإِمّا أَنْ تَخوني

(١) قَوّ: مكان، وفي معجم ما استعجم، ٣/ ١١٠٣: (بفتح أوّله، وتشديد ثانيه: واد بالعقيق، عقيق بنى عقيل)، بَيْضان: مكان (بفتح أوله، وبالضاد المعجمة، فعلان من البياض: وهى ماءة من مياه خزاعة عند برس الجبل المتقدّم الذكر) معجم ما استعجم، ١/ ٢٩٥، ٢٩٦.

علمت أميمة بفطرتها أن النشوز هو أقسى ما يمكن أن تواجه به زوجٌ شابًّا عفيفًا حديثَ الزواجِ بعد غيابه في غزوةٍ يزيد فيها الخوف من القتل فيكون أشدّ ما يلحّ عليه بعد نجاته شهوة التكاثر والحفاظ على النوع فتجرّأتْ وامتنعتْ عليه.

لكن ليستْ شهوة الجسد هي همّ الشنفرى الأكبر منها، إنما يُهمّه منها قبل أن تمكّنه من جسدها أن تمكّنه من نفسها فتكون له -كما اعتاد- الزوجَ المحبةَ الودودَ، لذلك يخيّرها بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن تودّه كما اعتادا فيرعاها بعطفه وكرم أخلاقه كما كان أو أن تُخلّ بواجباتها فتتغير معاملته لها.

إساءة بإساءة، والجزاء من جنس العمل[1].

---

(١) يَحتمل هذا البيت أكثر من تفسير، يَحتمل أن يكون قصده: إما أن تودينا فنرعى الأمانة التي عندكم (كناية عما لا يجب ذكره) أو أضطر لخيانتك، وساعتها يجب أن يُنسب الفعل إليك أنتِ لا إليّ أنا لأنك اضطررتني لذلك. لكنه معنى بعيد بسبب قوله (تودينا) فليس غرضه الرئيس غرضا جسديًّا، وكذلك يَحتمل: إما أن تودينا فنرعى أمانتكم وإما أن ترحلي وتتركينا، وهو يتناسب مع البيت التالي، وقد استُخدم لفظ التخوين بمعنى النقص كما في قول سيدنا كعب بن زهير: (في غارز لم تخوّنه الأحاليل)، ولكن التصريف الوارد في البيت من الفعل الثلاثي، وليس لهذا المعنى ما يؤيده غير الظن، والأَولى كما ذكرتُ: إمّا أن تودينا فنرعى أمانتكم وإما أن تخوني فنخون الأمانة. ثُمّ حذف (فنخون) لأنها مفهومة من السياق، أمّا ما يمكن أن يسبق إلى الذهن من معاني الخيانة الزوجية التي يفهمها هذا الجيل فإنها بعيدة كل البعد عن سياق البيت ومعناه وبعيدة كذلك عن أخلاق الشنفرى وأميمة.

لكنها في تلك اللحظة كانت قد أخلّت بواجباتها بالفعل، فما له يخيّرها بين أمرين قد سبقتْ إلى أحدِهما فاختارتْه بالفعل؟

ربما أراد الشنفرى أن يفتح لها بذلك بابًا للعودة عن غيّها والتفكير في أمرها وأن تطمئن إلى أنها لا تزال في سَعَة لم يَفتْها شيء؛ كأنه يدعوها بذلك لبداية جديدة يرجو أن تتمسك بها.

استهانة واستهزاء

٣- سَأُخْلي لِلظَّعينَةِ ما أَرادَتْ
وَلَسْتُ بِحارِسٍ لَكِ كُلَّ حينِ[١]

ومن سخرية القدر أن الرجل قد يكون جبّارًا عتيًّا فلا ينال منه أحدٌ نيلَ زوجِه منه ولا يتجرأ عليه أحدٌ تَجَرُّؤَ زوجِه عليه لمعرفتها ما خفي من طباعه وأخلاقه، وهذا ما فعلتْه أميمة لمعرفتها برحمة زوجها وإن بدا خشنًا، لقد صمدت له فواجهت إحسانه بإساءة جديدة، وبالغت في رد فعلها فأغلقت في وجهه باب البداية الجديدة قائلةً: إنها لن تصبر على إساءته لها إن فعل بل ستهجره إذا أساء!

سبحان الله! تريد أن تسيء هي إليه حتى يلينَ لها، ثم لا تقبل أن يكون في ردّه إساءة لها!

(١) **الظعينة**: المرأة في الهودج. يذكرنا أسلوب الشنفرى في هذا البيت بأسلوبه في البيت الخامس من التائية فراجعه.

لقد أخطأتْ صاحبَها، إنه الشنفرى؛ فليس له ذراع تؤلمه فيُمسك منها أو تُلوى، ولا يُتوقع من رجل في عناده إلا أن يَقرعها بهذه القارعة المنبّهة: إنه لن يمنعها، وليس هذا فقط، بل يلتفت إلى ضمير الغائب، لأنها في اللحظة التي تَلِجُ فيها هودجَها لن تكون أميمةَ صاحبتَه وإلفَه، بل ستكون امرأة غريبة كأيّ امرأة ظاعنة لا شأن له بها.

ثم يَقرعها بالثانية: فيمَ بقاؤكِ إذن؟ أنا لا أحرسك كل حين؛ إن كنتِ تخافين أن أمنعك فالأوقات التي أكون بعيدًا عنك فيها كثيرة، ويمكنكِ أن ترحلي بسهولة في أي وقت منها.

كان يريد أن يفتحَ لها بابًا للعودة عن غيّها، فطمعت وزاد بغيُها، ظنّتْ فكرة البداية الجديدة عن ضعف، ولم تعرف أنها عن مروءة وتذمم، فإن تجهل فجهله أشد وأعظم.

غضب وإزراء

٤- إذا مـا جِـئْـتِ مـا أَنْـهـاكِ عَـنْـهُ
وَلَـمْ أُنْـكِـرْ عَـلَـيْـكِ فَطَلِّقيني

٥- فَـأَنْـتِ الْـبَـعْـلُ يَـوْمَـئِـذٍ فَقومي
بِـسَـوْطِـكِ لا أَبـا لَـكِ فَاضْرِبيني[1]

(١) **البعل**: الزوج، **لا أبا لك**: دعاء يُستعمل في حالة الانفعال بخير أو بشرّ، ولا يقصد به حاقّ معناه إلا في القليل.

سُقِط في يد أميمة، وعلمتْ أنها بالغت في الإساءة، وأنها إنما استحضرت شرّ صاحبها، فأردات أن تصرفه دون أن تلين في غرضها أو أن تتراجع عنه؛ فصارحتْه بحبها وأنها لا يمكن أن تتركه، غير أنه ألجأها إلى أن تقول ما قالتْ بردوده العنيفة الجافية.

لم يكن الشنفرى إلى ذلك الحين مُلمًّا بما يحدث إلمامًا كاملًا، وظنّ أنها تعي معنى ما تقول، ولم يعرف أنها إنما تحتال لتصرف عن نفسها الخطأ بأن تلقيه عليه حتى تتمكن من الاستمرار في مطالبته بالهدوء والسكون، فاستغرب قولها، وعظم عليه أن تتهمه بما لم يفعل أو أن تُلقي عليه بخطئها؛ إنها هي التي أساءت إليه من البداية، ولم يفعل غير أنه قام بواجبه حين نهاها عن الإساءة، فإن كان من أحد ألجأ أحدًا إلى شيء فإنها هي التي ألجأته إلى الكلام الخشن الشديد ، ولم يلجئها لشيء، فماذا تتوقع منه إن قالتْ ما يكره أو امتنعت عنه؟ أتتوقع أن يُغضي عنها؟ فإن أغضى فقد انقلبت الآية، وأصبحت هي المسؤولة صاحبة الكلمة المالكة لعقدة النكاح، وساعتئذ سيصبح زوجًا بلا فائدة والأجدر بها أن تطلّقه؛ إذ لا خير فيه.

ولأنه لا يدرك أنها إنما تحتال ظنّ أنها ربما لم تفهم سخريته فزاد المعنى توضيحًا بالبيت الأخير حتى لا تردّ عليه بعد هذا ردًّا سخيفًا أكثر استفزازًا يدل على فهم معكوس كالذي مرّ؛ فشرحَ لها بالبيت

الأخير سبب قوله: فطلقيني، لأن الفرق بين الرجل والمرأة هو مَن منهم صاحب الكلمة في البيت، فإن خشي أن يُنكر عليها فكأنه قد أنزل نفسه منزلة المرأة فارتفعتْ هي إلى منزلة الرجل وأصبحت المشتملة عليه، ولا مانع ساعتها من أن تؤدّبه بالسوط فقد انقلبت الآية.



وبعد

فإننا لا ندري إن كانت هذه الملاحاة قد انتهتْ بالبيت الأخير أم استمرتْ؛ فإن الرواة لم ينقلوا غير هذه الأبيات الخمسة، وأرى أن هذه الأبيات كافية لتوضيح أنها كانت أول ما وقع بين الزوجين في هذا الأمر، أو على أضعف تقدير من أوائل ما وقع بينهما، وقد تبيّن أيضًا أن هذه المرأة هي نفسها أم عمرو أميمة التي قال فيها تائيته الشهيرة، وهي نفسها التي قال فيها بعدَ هذه القطعة وقبل التائية:

دَعيني وَقولي بَعْدُ ما شِئْتِ إِنَّني
سَيُغْدى بِنَعْشي مَرَّةً فَأُغَيَّبُ

ثُمّ أنشا يصف غزوة له بعقب هذا البيت؛ فكأنها -كما قلنا في شرحنا على التائية- كانت ضعفت حتى لم يبق من مقاومتها إلا أن تنهاه، وكان هذا هو السبب نفسه الذي تركته من أجله ورحلت.

إذن هذه هي أميمة، وكانت هذه القطعة في مرحلة مبكرة من زواجهما، وقد سجّل بها الشنفرى بداية هذا النزاع الذي استمرّ طوال زواجهما، ثم انتهى بما انتهى به، وقد رأينا كيف أخطأتِ المرأة التأتي فأساءتْ لنفسها واستجلبتِ التقريع، وهذا دليل على أنها لم تكن تعرف بعدُ أخلاق صاحبها معرفة تامّة، ثمّ رأينا كيف

تعاطى الشنفرى مع صاحبته، وهو تعاطي مَن لا خبرة له بالنساء، وهذا أحد أدلة عفافه التي ذكرنا بعضها في شرحنا على التائية، ورأينا كيف لجأ إلى الردود المسكتة غير الشافية، الخشنة القاطعة التي لا تترك مجالًا لنقاش أو توحي بأمل في التغيير، وهذا التحدي هو شيمة من شيم الشنفرى التي تغلبه ويغلب بها، وهي ظاهرة بوضوح في أشعاره كلها.

والخشونة ليست نقيض الرحمة -كما نبّه إلى ذلك الأستاذ العقاد رحمه الله في عبقرية عمر رضي الله عنه في غير موضع- ولكنها نقيض الصقل والنعومة، وقد يكون المرء ليّنًا ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة، وقد يكون خشنًا، لكنه رحيم، وقد رأينا في البيت الثاني كيف أنذرها الشنفرى عاقبة إساءتها، وهو قول الحريص على الرحمة والإنصاف، ولا يفوتنا أن جرأتها عليه بهذه الصورة دليل على أنها تأمن عاقبة إزعاجه وإغضابه، وهذا دليل معرفتها برحمته وكرم أخلاقه، ثم رأيناه قد دلّها على أوقات غيابه لتهجره إن خافت أن يمنعها، لكنها كما رأينا في التائية أبت إلا أن تنصرف في يوم هو موجود فيه، وأبت كذلك إلا أن تمرّ به في مجلسه وسط الناس، فإن تكن حينها قد اعتصمت بالصمت وأشاحت عنه فربما لم تفعل إلا لتأكيد رغبتها لعله يجزع فيعطيها ما أرادت ويعدها بالتوقف عن

الغارة والغزو، فإن كان هذا هو تدبيرها الحقيقي فإنه دليل على حبها الشديد له برغم كل شيء، وربما جاز للبعض أن يستدلّ به على أنها لم تكن سوى امرأة أعجبته كما بينّا في شرح التائية، وإن كنتُ لا أراه دليلًا كافيًا، ويكفي ما استدللنا به هناك على ذلك.

ولم يكن الشنفرى خاملا ولا مجهولا، لا عند أميمة ولا عند غيرها، لكنها طمعت في تغييره بعد انتقالها إلى مجتمعه، وقد كان مجتمعًا ذا ظروف خاصة بين المجتمعات العربية حينها؛ كان مجتمعًا مستقرًّا عاش رجاله حياة سهلة فسهلت بذلك أخلاقهم وسهل على نسائهم أن يسيطرن عليهم[1].

وبرغم ما حوته هذه الأبيات من تفاصيل موضحة لطبيعة العلاقة بين الشنفرى وزوجه إلا أنها من طبقة أدنى بكثير من تائيته ومن لامية العرب بلا شك؛ فالموضوع الذي تعالجه كما ترى لا ينهض بها إلى أبعد من هذا المستوى.

الخلاصة أنك لن تجد أي تناقض بين الشنفرى هنا والشنفرى في لامية العرب أو تائيته، وقصارى ما تجد اختلاف أسلوبه من الأجوبة شديدة الخشونة المسكتة إلى الأجوبة الأقل خشونة

(١) راجع أحد تعليقاتنا على البيت العشرين من لامية العرب، وراجع كذلك تعليقنا على البيت الثاني والعشرين من تائيته.

الموضحة والمبينة، وهو اعتذاره بأن الموت لن يتركه إن ترك انتقامه، ولكن -كما قلنا في شرح التائية- لم تُرِد أميمة أن تقتنع بهذا، ليس لأنه غير مقنع، بل لأنها أرادته أن يسكن ويتوقف عن القتل والانتقام، أرادت ذلك وإن كان خطأً، فلم يغْنِها إلا أن يسكن ويهدأ لا غير، وربما جعلت سكونه علامةً إن فعله فقد تيقنت من حبه إياها، يؤيد ذلك مرورها به دون توديع، وربما كان ذلك وكان معه خوفها عليه وعلى من يمكن أن يُرزقا به في المستقبل من أولاد، وقد كرهت أن تمرّ بما مرّت أمُّهُ به من قبل.

وفي الختام فإنك لن تجد فرقًا بين نهجي هنا ونهجي في شرح اللامية والتائية فراجعهما. أسأل الله أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم!

والحمد لله رب العالمين، وصلاةً وسلامًا على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين!

محمود رفعت

الجمعة: 22 من جُمادى الأولى 1441

17 من يناير 2020م

لامـيـة الـعـرب

١- أَقيموا بَني أُمّـي صُـدورَ مَطِيِّكُمْ

فَـإِنّـي إِلـى قَــوْمٍ سِـواكُـمْ لَأَمْـيَـلُ

٢- فَقَدْ حُمَّتِ الْحاجاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ

وَشُــدَّتْ لِـطِـيّـاتٍ مَطايا وَأَرْحُــلُ

٣- وَفي الْأَرْضِ مَنْأًى لِلْكَريمِ عَنِ الْأَذى

وَفيها لِـمَـنْ خـافَ الْقِـلـى مُـتَـعَـزَّلُ

٤- لَعَمْرُكَ ما في الْأَرْضِ ضيقٌ على امْرِئٍ

سَـرى راغِـبًـا أَوْ راهِـبًـا وَهْــوَ يَعْقِلُ

٥- وَلـي دونَكُمْ أَهْلونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ

وَأَرْقَــطُ زُهْــلــولٌ وَعَــرْفـاءُ جَـيْـأَلُ

٦- هُمُ الْأَهْـلُ لا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذائِعٌ

لَـدَيْـهِـمْ وَلا الْجاني بِما جَـرَّ يُخْذَلُ

٧- وَكُــلٌّ أَبِــيٌّ بـاسِـلٌ غَـيْـرَ أَنَّـنـي

إِذا عَـرَضَـتْ أُولـى الـطَّـرائِـدِ أَبْـسَـلُ

٨- وَإِنْ مُدَّتِ الْأَيْدي إِلى الزّادِ لَمْ أَكُنْ
بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ

٩- وَما ذاكَ إِلّا بَسْطَةٌ عَنْ تَفَضُّلٍ
عَلَيْهِمْ وَكانَ الْأَفْضَلَ الْمُتَفَضِّلُ

١٠- وَإِنّي كَفاني فَقْدَ مَنْ لَيْسَ جازِيًا
بِحُسْنى وَلا في قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ

١١- ثَلاثَةُ أَصْحابٍ فُؤادٌ مُشَيَّعٌ
وَأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وَصَفْراءُ عَيْطَلُ

١٢- هَتوفٌ مِنَ الْمُلْسِ الْمُتونِ تَزينُها
رَصائِعُ قَدْ نيطَتْ إِلَيْها وَمِحْمَلُ

١٣- إِذا زَلَّ عَنْها السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّها
مُرَزَّأَةٌ ثَكْلى تُرِنُّ وَتُعْوِلُ

١٤- وَأَغْدو خَميصَ الْبَطْنِ لا يَسْتَفِزُّني
إِلى الزَّادِ حِرْصٌ أَوْ فُؤادٌ مُوَكَّلُ

١٥- وَلَسْتُ بِمِهْيافٍ يُعَشّي سَوامَهُ
مُجَدَّعَةً سُقْبانُها وَهْيَ بُهَّلُ

١٦- وَلا جُبَّأٍ أَكْهَى مُرِبٍّ بِعِرْسِهِ
يُطالِعُها في شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ

١٧- وَلا خَرِقٍ هَيْقٍ كَأَنَّ فُؤادَهُ
يَظَلُّ بِهِ الْمُكّاءُ يَعْلو وَيَسْفُلُ

١٨- وَلا خالِفٍ دارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ
يَروحُ وَيَغْدو داهِنًا يَتَكَحَّلُ

١٩- وَلَسْتُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دونَ خَيْرِهِ
أَلَفَّ إِذا ما رُعْتَهُ اهْتاجَ أَعْزَلُ

٢٠- وَلَسْتُ بِمِحْيارِ الظَّلامِ إِذا انْتَحَتْ
هُدى الْهَوْجَلِ الْعِسِّيفِ يَهْماءُ هَوْجَلُ

٢١- إِذا الْأَمْعَزُ الصَّوّانُ لاقى مَناسِمي
تَطايَرَ مِنْهُ قادِحٌ وَمُفَلَّلُ

٢٢- أُديمُ مِطالَ الْجوعِ حتّى أُميتَهُ
وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ

٢٣- وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلا يَرى لَهُ
عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

٢٤- وَلَوْلا اجْتِنابُ الذّامِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ
يُـعـاشُ بِـهِ إلّا لَـدَيَّ وَمَـأْكَـلُ

٢٥- وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُـرَّةً لا تُقيمُ بي
عَـلـى الـذَّامِ إلّا رَيْـثَـمـا أَتَـحَـوَّلُ

٢٦- وَأَطْوي عَلى الْخَمْصِ الْحَوايا كَما انْطَوَتْ
خُـيـوطَـةُ مـارِيٍّ تُـغـارُ وتُـفْـتَـلُ

٢٧- وَأَغْدو عَلى الْقوتِ الزَّهيدِ كَما غَدا
أَزَلُّ تَـهـاداهُ الـتَّـنـائِـفُ أَطْـحَـلُ

٢٨- غَدا طاوِيًا يُعارِضُ الرّيحَ هافِيًا
يَـخـوتُ بِـأَذْنـابِ الـشِّـعـابِ ويَعْسِلُ

٢٩- فَلَمّا لَـواهُ الْقوتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّهُ
دَعـا فَـأَجـابَـتْـهُ نَـظـائِـرُ نُـحَّـلُ

٣٠- مُهَلْهَلَةٌ شِيبُ الْـوُجـوهِ كَأَنَّها
قِـداحٌ بِـكَـفَّـيْ يـاسِـرٍ تَـتَـقَـلْـقَـلُ

٣١- أَوِ الْخَشْرَمُ الْمَبْعوثُ حَثْحَثَ دَبْرَهُ
مَـحـابِـيـضُ أَرْداهُـنَّ سـامٍ مُـعَـسِّـلُ

٣٢- مُـهَـرَّتَـةٌ فُــوهٌ كَــأَنَّ شُدوقَها
شُـقـوقُ الْـعِـصِـيِّ كـالِـحـاتٌ وَبُـسَّـلُ

٣٣- فَضَجَّ وَضَـجَّـتْ بِالْبَراحِ كَأَنَّها
وَإِيّـــاهُ نَــوْحٌ فَــوْقَ عَـلْـيـاءَ ثُـكَّـلُ

٣٤- وَأَغْضى وَأَغْضَتْ وَاتَّسى واتَّسَتْ بِهِ
مَـرامـيـلُ عَـزّاهـا وَعَـزَّتْـهُ مُـرْمِـلُ

٣٥- شَكا وَشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوى بَعْدُ وَارْعَوَتْ
وَلَلْصَّبْرُ إِنْ لَـمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ

٣٦- وَفــاءَ وَفــاءَتْ بــادِراتٍ وَكُلُّها
عَـلـى نَـكَـظٍ مِـمّـا يُـكـاتِـمُ مُـجْـمِـلُ

٣٧- وَتَشْرَبُ أَسْآري الْقَطا الْكُدْرُ بَعْدَما
سَــرَتْ قَـرَبًـا أَحْـنـاؤُهـا تَتَصَلْصَلُ

٣٨- هَمَمْتُ وَهَمَّتْ وَابْتَدَرْنا وَأَسْدَلَتْ
وَشَـــمَّـــرَ مِـنّــي فــــارِطٌ مُـتَـمَـهِّـلُ

٣٩- فَوَلَّيْتُ عَنْها وَهْـيَ تَكْبو لِعَقْرِهِ
يُـبـاشِـرُهُ مِـنْـهـا ذُقــونٌ وَحَـوْصَـلُ

٤٠- كَـأَنَّ وَغاها حَجْرَتَيْهِ وَحَـوْلَـهُ

أَضـامِـيـمُ مِـنْ سَـفْـرِ الْـقَـبـائِـلِ نُـزَّلُ

٤١- تَوافَيْنَ مِـنْ شَتّى إِلَـيْـهِ فَضَمَّها

كَما ضَـمَّ أَذْوادَ الْأَصـاريـمِ مَنْهَلُ

٤٢- فَعَبَّتْ غِشاشًا ثُـمَّ مَـرَّتْ كَأَنَّها

مَـعَ الصُّبْحِ رَكْـبٌ مِـنْ أُحاظَةَ مُجْفِلُ

٤٣- وَآلَفُ وَجْهَ الْأَرْضِ عِنْدَ افْتِراشِها

بِـأَهْـدَأَ تُـنْـبـيـهِ سَـنـاسِـنُ قُـحَّـلُ

٤٤- وَأَعْـدِلُ مَنْحوضًا كَـأَنَّ فُصوصَهُ

كِـعـابٌ دَحـاهـا لاعِــبٌ فَـهْـيَ مُـثَّـلُ

٤٥- فَـإِنْ تَبْتَئِسْ بِالشَّنْفَرى أُمُّ قَسْطَلٍ

فَما اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرى قَبْلُ أَطْـوَلُ

٤٦- طَرِيدُ جِناياتٍ تَياسَرْنَ لَحْمَهُ

عَـقـيـرَتُـهُ لِأَيِّـهـا حُـمَّ أَوَّلُ

٤٧- تَبيتُ إِذا ما نـامَ يَقْظى عُيونُها

حِـثـاثًـا إِلـى مَـكْـروهِـهِ تَـتَـغَـلْـغَـلُ

٤٨- وَإِلْــفُ هُـمـومٍ ما تَــزالُ تَـعـودُهُ
عِـيـادًا كَحُمّى الـرِّبْـعِ أَوْ هِــيَ أَثْـقَـلُ

٤٩- إِذا وَرَدَتْ أَصْـدَرْتُـهـا ثُـمَّ إِنَّها
تَـثـوبُ فَتَأْتي مِـنْ تُحَيْتُ وَمِــنْ عَلُ

٥٠- فَإِمّا تَرَيْني يابْنَةَ الرَّمْلِ ضاحِيًا
عَـلـى رِقَّـــةٍ أَحْــفـــى وَلا أَتَـنَـعَّـلُ

٥١- فَإِنّي لَمَوْلى الصَّبْرِ أَجْتابُ بَزَّهُ
عَلى مِثْلِ قَلْبِ السِّمْعِ وَالْـحَـزْمَ أَنْعَلُ

٥٢- وَأُعْــدِمُ أَحْيانًا وَأَغْـنـى وَإِنَّما
يَـنـالُ الْغِنى ذو الْـبُـعْـدَةِ الْـمُـتَـبَـذِّلُ

٥٣- فَـلا جَــزِعٌ مِـنْ خَـلَّـةٍ مُتَكَشِّفٌ
وَلا مَـــرِحٌ تَــحْــتَ الْـغِـنـى أَتَـخَـيَّـلُ

٥٤- وَلا تَزْدَهي الْأَجْهالُ حِلْمي وَلا أُرى
سَــؤولًا بِـأَعْـقـابِ الْأَقــاويــلِ أُنْــمِـلُ

٥٥- وَلَيْلَةِ نَحْسٍ يَصْطَلي الْقَوْسَ رَبُّها
وَأَقْــطُــعَــهُ الــلّاتــي بِـهـا يَـتَـنَـبَّـلُ

٥٦- دَعَسْتُ عَلى غَطْشٍ وَبَغْشٍ وَصُحْبَتي

سُعارٌ وَإِرْزيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ

٥٧- فَأَيَّمْتُ نِسْوانًا وَأَيْتَمْتُ إِلْدَةً

وَعُدْتُ كَما أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلْيَلُ

٥٨- وَأَصْبَحَ عَنّي بِالْغُمَيْصاءِ جالِسًا

فَريقانِ مَسْؤولٌ وَآخَرُ يَسْأَلُ

٥٩- فَقالوا لَقَدْ هَرَّتْ بِلَيْلٍ كِلابُنا

فَقُلْنا أَذِئْبٌ عَسَّ أَمْ عَسَّ فُرْعُلُ

٦٠- فَلَمْ يَكُ إِلّا نَبْأَةٌ ثُمَّ هَوَّمَتْ

فَقُلْنا قَطاةٌ ريعَ أَمْ ريعَ أَجْدَلُ

٦١- فَإِنْ يَكُ مِنْ جِنٍّ لَأَبْرَحُ طارِقًا

وَإِنْ يَكُ إِنْسًا ما كَها الْإِنْسُ تَفْعَلُ

٦٢- وَيَوْمٍ مِنَ الشِّعْرى يَذوبُ لُوابُهُ

أَفاعيهِ في رَمْضائِهِ تَتَمَلْمَلُ

٦٣- نَصَبْتُ لَهُ وَجْهي وَلا كِنَّ دونَهُ

وَلا سِتْرَ إِلّا الْأَتْحَمِيُّ الْمُرَعْبَلُ

٦٤- وَضافٍ إِذا هَبّتْ لَهُ الرّيحُ طَيَّرَتْ
لَبائِدَ عَنْ أَعْطافِهِ ما تُرَجَّلُ

٦٥- بَعيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ وَالْفَلْيِ عَهْدُهُ
لَهُ عَبَسٌ عافٍ مِنَ الْغُسْلِ مُحْوِلُ

٦٦- وَخَرْقٍ كَظَهْرِ التُّرْسِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ
بِعامِلَتَيْنِ ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَلُ

٦٧- فَأَلْحَقْتُ أُولاهُ بِأُخْراهُ موفِيًا
عَلى قُنَّةٍ أُقْعي مِرارًا وَأَمْثُلُ

٦٨- تَرودُ الْأَراوي الصُّحْمُ حَوْلي كَأَنَّها
عَذارى عَلَيْهِنَّ الْمُلاءُ الْمُذَيَّلُ

٦٩- وَيَرْكُدْنَ بِالْآصالِ حَوْلي كَأَنَّني
مِنَ الْعُصْمِ أَدْفى يَنْتَحي الْكِيحَ أَعْقَلُ

التائية

١- أَلا أُمُّ عَمْرٍو أَجْمَعَتْ فَاسْتَقَلَّتِ
وَما وَدَّعَتْ جيرانَها إِذْ تَوَلَّتِ

٢- وَقَدْ سَبَقَتْنا أُمُّ عَمْرٍو بِأَمْرِها
وَكانَتْ بِأَعْناقِ الْمَطِيِّ أَظَلَّتِ

٣- بِعَيْنَيَّ ما أَمْسَتْ فَباتَتْ فَأَصْبَحَتْ
فَقَضَّتْ أُمورًا فَاسْتَقَلَّتْ فَوَلَّتِ

٤- فَوا كَبِدا عَلى أُمَيْمَةَ بَعْدَما
طَمِعْتُ فَهَبْها نِعْمَةَ الْعَيْشِ زَلَّتِ

٥- فَيا جارَتي وَأَنْتِ غَيْرُ مُليمَةٍ
إِذا ذُكِرَتْ وَلا بِذاتِ تَقَلَّتِ

٦- لَقَدْ أَعْجَبَتْني لا سَقوطٌ قِناعُها
إِذا ما مَشَتْ وَلا بِذاتِ تَلَفُّتِ

٧- تَبيتُ بُعَيْدَ النَّوْمِ تُهْدي غَبوقَها
لِجارَتِها إِذا الْهَدِيَّةُ قَلَّتِ

٨- تَـحُـلُّ بِمَنْجاةٍ مِـنَ الـلَّـوْمِ بَيْتَها
إِذا مـا بُـيـوتٌ بِـالْـمَـذَمَّـةِ حُـلَّـتِ

٩- كَـأَنَّ لَها في الْأَرْضِ نِسْيًا تَقُصُّهُ
عَـلـى أَمِّـهـا وَإِنْ تُـكَـلِّـمْكَ تَبْلِتِ

١٠- أُمَيْمَةُ لا يُخْزي نَثاها حَليلَها
إِذا ذُكِـرَ الـنِّـسْـوانُ عَـفَّـتْ وَجَـلَّـتِ

١١- إِذا هُـوَ أَمْـسـى آبَ قُـرَّةَ عَيْنِهِ
مَـآبَ السَّعيدِ لَـمْ يَـسَـلْ أَيْـنَ ظَلَّتِ

١٢- فَدَقَّتْ وَجَلَّتْ وَاسْبَكَرَّتْ وَأُكْمِلَتْ
فَلَوْ جُـنَّ إِنْـسـانٌ مِـنَ الْحُسْنِ جُنَّتِ

١٣- فَبِتْنا كَـأَنَّ الْبَيْتَ حُجِّرَ فَوْقَنا
بِـرَيْـحـانَـةٍ رِيـحَـتْ عِـشـاءً وَطُـلَّـتِ

١٤- بِرَيْحانَةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةَ نَـوَّرَتْ
لَها أَرَجٌ مـا حَـوْلَـهـا غَـيْـرُ مُسْنِتِ

١٥- وَباضِعَةٍ حُمْرِ الْقِسِيِّ بَعَثْتُها
وَمَـــنْ يَـغْـزُ يَـغْـنَـمْ مَــرَّةً وَيُـشَـمَّـتِ

١٦- خَرَجْنا مِنَ الْوادي الَّذي بَيْنَ مِشْعَلٍ
وَبَيْنَ الْجَبا هَيْهاتَ أَنْشَأْتُ سُرْبَتي

١٧- أُمَشّي عَلى الْأَرْضِ الَّتي لَنْ تَضُرَّني
لِأَنْكِيَ قَوْمًا أَوْ أُصادِفَ حُمَّتي

١٨- أُمَشّي عَلى أَيْنِ الْغَزاةِ وَبُعْدِها
يُقَرِّبُني مِنْها رَواحي وَغَدْوَتي

١٩- وَأُمِّ عِيالٍ قَدْ شَهِدْتُ تَقوتُهُمْ
إِذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتَحَتْ وَأَقَلَّتِ

٢٠- تَخافُ عَلَيْنا الْعَيْلَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ
وَنَحْنُ جِياعٌ أَيَّ آلٍ تَأَلَّتِ

٢١- وَما إِنْ بِها ضِنٌّ بِما في وِعائِها
وَلٰكِنَّها مِنْ خيفَةِ الْجوعِ أَبْقَتِ

٢٢- مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُرُ السِّتْرُ دونَها
وَلا تُرْتَجى لِلْبَيْتِ إِنْ لَمْ تُبَيِّتِ

٢٣- لَها وَفْضَةٌ فيها ثَلاثونَ سَيْحَفًا
إِذا آنَسَتْ أُولى الْعَدِيِّ اقْشَعَرَّتِ

٢٤- وَتَأْتي الْعَدِيَّ بـارِزًا نِصْفُ ساقِها
تَـجـولُ كَـعَـيْـرِ الْـعـانَـةِ الْـمُـتَـلَـفِّـتِ

٢٥- إِذا فَزِعوا طـارَتْ بِأَبْيَضَ صارِمٍ
وَرامَـــتْ بِما فـي جَـفْـرِهـا ثُـمَّ سَلَّتِ

٢٦- حُسامًا كَلَوْنِ الْمِلْحِ صافٍ حَديدُهُ
جُـــرازًا كَـأَقْـطـاعِ الْـغَـديـرِ الْمُنَعَّتِ

٢٧- تَراها أَمـامَ الْحَيِّ حينَ تَشايَحوا
لَـدى مَنْكِبَيْها كُـلُّ أَبْـيَـضَ مُصْلَتِ

٢٨- تَراها كَأَذْنابِ الْحَسيلِ صَـوادِرًا
وَقَـــدْ نَـهِـلَـتْ مِـنَ الـدِّمـاءِ وَعَـلَّـتِ

٢٩- قَتَلْنا قَتيلًا مُـهْـدِيًـا بِمُلَبِّدٍ
جِمارَ مِنًى وَسْـطَ الْحَجيجِ الْمُصَوِّتِ

٣٠- فَـإِنْ تُقْبِلوا نُقْبِلْ بِمَنْ نيلَ مِنهُمُ
وَإِنْ تُـدْبِـروا فَـأُمُّ مَــنْ نِـيـلَ فُـتَّـتِ

٣١- جَزَيْنا سَلامانَ بْنَ مُفْرِجَ قَرْضَها
بِـمـا قَـدَّمَـتْ أَيْـديـهِـمُ وَأَزَلَّـــتِ

٣٢- وَهُنِّئَ بي قَــوْمٌ وَمــا إِنْ هَنَأْتُهُمْ

وَأَصْبَـحْـتُ في قَــوْمٍ وَلَيْسوا بِمُنْيَتي

٣٣- شَفَيْنا بِعَبْدِ اللهِ بَعْضَ غَليلِنا

وَعَــوْفٍ لَدى الْمَعْدَى أَوانَ اسْتَهَلَّتِ

٣٤- إِذا ما أَتَتْني مِيتَتي لَــمْ أُبالِها

وَلَــمْ تُــذْرِ خالاتي الــدُّمــوعَ وَعَمَّتي

٣٥- أَلا لا تَعُدْني إِنْ تَشَكَّيْتُ خُلَّتي

شَفاني بِأَعْلى ذي الْبُرَيْقَيْنِ عَدْوَتي

٣٦- وَإِنّــي لَحُلْوٌ إِنْ أُريــدَتْ حَلاوَتي

وَمُــرٌّ إِذا نَـفْـسُ الْـعَـزوفِ اسْـتَـمَـرَّتِ

٣٧- أَبِــيٌّ لِما آبَــى سَــريــعٌ مَباءَتي

إِلــى كُــلِّ نَـفْـسٍ تَنْتَحي في مَسَرَّتي

٣٨- وَلَـوْ لَمْ أَرِمْ في أَهْـلِ بَيْتِيَ قاعِدًا

أَتَتْني إِذَنْ بَــيْــنَ الْـعَـمـودَيْـنِ حُمَّتي

القطعة النونية



١- إذا أَصْبَحْتُ بَيْنَ جِبالِ قَوٍّ
وَبَيْضانِ الْقُرى لَمْ تَحْذَريني

٢- فَإِمّا أَنْ تَوَدّينا فَنَرْعى
أَمانَتَكُمْ وَإِمّا أَنْ تَخوني

٣- سَأُخْلي لِلظَّعينَةِ ما أَرادَتْ
وَلَسْتُ بِحارِسٍ لَكِ كُلَّ حينِ

٤- إذا ما جِئْتِ ما أَنْهاكِ عَنْهُ
وَلَمْ أُنْكِرْ عَلَيْكِ فَطَلِّقيني

٥- فَأَنْتِ الْبَعْلُ يَوْمَئِذٍ فَقومي
بِسَوْطِكِ لا أَبا لَكِ فَاضْرِبيني

فهرس المحتويات

لقد أحبّ صاحب هذا الكتاب الشنفرى على بعد الزمان والمكان، وخلطه بنفسه حتى نسي أنه محمود وأنه الشنفرى، وبدا له أنه إنما يراجع كلامًا قاله هو نفسُه قبل ستة عشر قرنا؛ فعنده من ثمَّ خبرُه الذي لا يعرفه غيرُه على طول استتاره ولا يجوز منه الارتياب فيه، لأنه صدَق نفسه، والصدق منجاة!

اقرأ ما شئت من شروح شعر الشنفرى، ثم انسَهُ، واقرأ هذا الكتاب؛ فلسوف تجد صاحبه يجمع لك من معاني الشنفرى ومبانيه التي فرَّقها في شعره ما لم يجتمع قبله، مثلما يجمع مركبو أجزاء الصور المقطعة أجزاءها -فإذا هي صور أشخاص يعرفونهم أو يعرفون أشباههم- ولا يدعها حتى يعلق بها معانيه ومبانيه!

أ.د. محمد جمال صقر

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ


ISBN 978-977-278-837-8

